

## القسم الثاني

غيوفري بلانتغنت

١١٢٨-١١٥٤

تزوج في سنة ١١٢٨ غيوفري الجميل من ماتيلدا الامبراطورة المتكبرة، وكان قد لُقّب بلانتغنت لأنه وضع قشة مكنسة في قبعته (غنت=مكنسة)، وكان سيصبح بعد قليل كونت أنجو، أما ماتيلدا فكانت ابنة هنري الأول ووريثته المسماة، وكان هنري الأول ملكا لانكلترا ودوقاً لنورماندي، وعندما توفي هنري في سنة ١١٣٥، استولى ابن اخته ستيفن أوف بليوس على المملكة الانكليزية، وتحارب بيتا أنجو وبليوس خلال التسع عشرة سنة المقبلة من أجل السيطرة على انكلترا ونورماندي، وزكزت ماتيلدا جهودها على المملكة، وركز الكونت غيوفري جهوده على الدوقية، وقد أصبح دوق نورماندي في سنة ١١٤٤، وفي سنة ١١٥٣ أجبر الملك ستيفن على القبول بالاعتراف بهنري ابن غيوفري وماتيلدا، ولياً لعهد ووريثاً له في حكم انكلترا ويبدأ القسم الثاني بترجمة غيوفري بلانتغنت، العالية الاطراء والتي كانت في يوم من الأيام منمقة جداً، وكتبت هذه الترجمة في حوالي سنة ١١٧٠ من قبل جون أوف مارموتير، وهي مليئة بصور للفروسية، وبأفاعيل جريئة، وكانت الغاية منها ارضاء هنري الثاني ابن غيوفري، وأظهر بالمقابل هنري رئيس شامسة هتتغدون بالمقارنة قليلاً من التصورات والمواقف السياسية المسبقة، في كتابه «تاريخ الانكليز»، وقد اكتمل سنة ١١٥٤، ووصف في كتابه هذا بشكل حي سمات ستيفن

الحسنة وكذلك السيئة، وبذلك أعاد حكمه إلى الحياة.

من المعروف بشكل جيد لكل انسان أن العرق الأنجيفي قد ازدهر في ظل حكام ذوي معنويات عالية ومحبون الحرب، وقد حكموا الشعب المحيط بهم بالرعب، ولاخلاف حول حقيقة أنهم تولوا جميع أعمال التدمير التي أمكنهم القيام بها والتي عانى منها جيرانهم، وبذلك أخضعوا البلدان التي من حولهم، وبالنسبة لحكام أنجو الذين رأوا أن حكم أنجو لا يكفيهم، اعتمدوا وسيلة الحرب للحصول على مناطق تور، وذلك عندما لحقت الهزيمة بأودو صاحب شاميين على يدي الناجح فولك، الذي لقبه «نيرا»، وفي معركة بري Braye هزم الكونت ثيوبولد بن أودو هزيمة ساحقة، وأخذ أسيراً بموجب شريعة الحرب، فمن هذه الجبلية الرائعة من الأمراء جاء غيوفري، الابن الواسع الشهرة لفولك، ملك القدس.

وفي الحقيقة امتلك غيوفري كل سمات الشهرة (٧)، وكان جديراً بالمدح والثناء، فكجندبي حصل على أعظم الأتجاد، واستفاد مثل ذلك من حظه الحسن، وبما بذله من جهود، وقد أوقف نفسه على الدفاع عن الجماعة ومساعدته الفنون الحرة ورعايتها، وبذل جهوداً كبيرة لأن يجب عن جدارة، وكان شريفاً مخلصاً لجميع أصدقائه، ولم يكن فقط عظيماً في أعين العالم على اتساعه، بل كان موضع ثقة أكثر من البقية، وكانت كلماته دوماً جيدة ولطيفة وفيها مداعبة، وكانت مثله موضع إعجاب وقبول، وكان متفوقاً في الجدل حول قضاياها، وامتلك معرفة جيدة حول العصور القديمة، وبما أنه كان مثقفاً، كان بإمكانه أن يتذكر تماماً ليس فقط ما حدث في موطنه بل أيضاً الحروب والأفاعيل في جميع بلدان الخارج.

ولم يكن متميزاً بشكل استثنائي ببراعته في فنون الحرب فقط، بل أعاد بعد تحديات عظيمة إمارته إلى السلام، وشعبه إلى الحياة الهادئة، وكان هذا الرجل جندياً عملاقاً، وكان، كما قلت، الأكثر براعة وذكاء في معاملاته المباشرة، وكان متعلماً بشكل استثنائي، وكرماً نحو الجميع، وطويلاً في بنيانه الجسدي، وجذاباً له شعر أحمر، فقد كان الأب لكونتيته وموضع فخارها.

وكان منحمساً حول البراعات العسكرية، شديد التدقيق في عدالته، كما أنه حبي بكل السمات الطيبة والعادات الحسنة، ولم يكن أقل شأناً في أي مجال من المجالات، من أي واحد من الأمراء العظام في أيامه، وكان محبوباً من قبل الجميع مع أنه تحمل كثيراً من المشاكل من رجاله، وحيث أنه كان ذكياً وقوي الأخلاق لم يسمح لنفسه بالفساد عن طريق الغلو أو التراخي في أيام مراهقته، بل أمضى وقته ركباً حول كونتيته، لينجز براعات رائعة، وتحدث عن نفسه قلباً، وكذلك عن أعماله، وكسب بهذه الأعمال لنفسه محبة الجميع، وقذف بالرعب في قلوب أعدائه، وكان لطيفاً وكرماً، وامتلك نفساً رقيقة، ورحيمة نحو رعيته، وتحمل الإساءات والأذى برباطة جأش، وعندما كان يسمع بنفسه توجيه الإهانات إليه في كثير من المناطق، كان يخفي بصبر ما شعر به، وكان بشكل استثنائي أنيساً ومرحاً نحو الجميع، ولا سيما نحو الجنود، هكذا كانت محاسنه وكرمه حتى أن الذين أخضعهم بالقوة، تغلب عليهم بالرحمة حسبما أنا مقبل على روايته في الحكايات التالية

سنة ثمان وعشرين ومائة وألف

عندما أصبح غيوفري في الخامسة عشرة من عمره، أنهى بذلك

طفولته، وبات أشبه بوردة في أول تفتحها، وانتشرت أخبار واشاعات، تبرهن فيما بعد أنها صحيحة بوساطة وفرة من البراهين، تحدثت كلها عن طاقات الشاب في الطول والعرض، حتى وصلت أخبار اسمه وسماعته الشهيرة إلى مسامع الملك العظيم والمجد هنري الأول ملك انكلترا، وكان الملك على معرفة واضحة أن أجداد الشاب كانوا متميزين، وأنهم نبعا من جبلة كريمة قديمة، وكانوا مستقيمين في عاداتهم وبارعين في فنون الحرب، وسمع أن الشاب لم يكن مستثنى من هذا، بقدر ماسمح العمر بالحديث، وقرر الملك أن يربط فيما بين ابنته الوحيدة ماتيلدا، أرملة الامبراطور هنري الخامس، وبين هذا الرجل الشاب بزواج شرعي.

وبناء عليه جرى ارسال سفراء فوق العادة ليتقدموا باسم الشاب غيوفري بطلب الموافقة من أبيه فولك الخامس، كونت أنجو، وإخباره بإرادة الملك، وكان هذا الرجل حكيما ومتيقظا في كل المسائل، ولهذا عامل المندوبين بنشريف، وعن طواعية وعدهم بالموافقة المؤكدة على المطلب الملكي، وقدم العهد وعقد الميثاق وثبت ذلك بالأيمان، مزيلا بذلك كل آثار للشك (٨)، ووافق الكونت، بناء على تعليمات الملك، على ارسال ابنه، الذي لم يرسم فارسا بعد، أن يرسله بشكل رسمي إلى روان في أحد الشعانين المقبل، من أجل أن يرسم فارسا مع آخرين من العمر نفسه، وسط احتفال ملكي، ولم تكن هناك صعوبة في الترتيب لهذا، فالمطلب الحق حظي بالموافقة السهلة.

وهكذا، بناء على موافقة أبيه، انطلق الصهر المقبل لملك انكلترا، نحو روان مع خمسة بارونات هم: جاكولين أوف ميل، وروبرت أوف سيمبلانكي، وهارودين أوف سينت مارس، وروبرت أوف بلو، وباين أوف كليرفيل، وخمسة عشر من أبناء جيلسه، وذلك بصحبة كثير من الفرسان، والاشاعة دوماً سباقه، هكذا أعلنت عن وصول ابن الكونت إلى عند الملك، وفرح هنري الأول بما قيل عن وصول غيوفري، وبعث

بعضاً من أعلى النبلاء مكانة لديه بمشابة ممثلين له، وليصطحبوا الرجل الشاب إلى الحضرة الملكية بالحفاوة اللائقة والرعاية، ودخل غيوفري إلى القاعة الملكية محاطاً برجالهم ورجال الملك، مع حشد من الناس العاديين واقفين من حولهم، أما الملك الذي اعتاد ألا يقف لأحد، فقد نهض وذهب لاستقباله وأمسكه بحنان وعانقه بعاطفة، وأعطاه قبلة صغيرة، وكأنه كان ابنه، ثم أمسك غيوفري بيده وأصرّ عليه أن يجلس إلى جانبه، وتحدث الملك حول مختلف الموضوعات مع الرجل الشاب وطرح عليه عدداً من المشاكل، ليكتشف كم هي حكيمة رداًت فعله أثناء الحديث الخاص، وأجاب غيوفري بإحكام، لكن كما هي عادة العقلاء زين كلماته ببلاغة معروفة إلى قلة، أما الملك الذي ازداد عمق إعجاب به لحظة تلو الأخرى، فقد سر سروراً عظيماً بحكمة الشاب وبأجوبته، وهكذا مضى اليوم كله بسرور وانشرح.

ومع اقتراب حلول اليوم التالي، استعد غيوفري للحمام الطقوسي، حسبما تطلبت العادة من الرجل الشاب الذي كان على وشك أن يصبح فارساً، وعندما علم الملك من حجابيه بأن الأنجيفي والذين جاءوا معه خرجوا من الاغتسال، استدعاهم إلى حضرته، وبعدما طهر الشاب جسده، جرى لف هذا النيبيل المنحدر من كونت أنجوبفطع من الكتان الصفيق، ثم وضع عليه ثوباً طقوسياً حيك بالذهب، وارندى فوقه رداء صبغ باللون القرمزي المستخرج من محار المريق، وارندى زوجاً من الأحذية طرزا بأشكال أشبال، أما رفاقه، الذين كان من المتوقع تلقيهم منحة الفروسية، فقد ارتدوا مثله الكتان والقرمز، وتزينوا بشكل بهي حسبما وصفت، وخرج الصهر المستقبلي لملك انكلترا من الغرفة السرية إلى أمام الناس، وكان محاطاً بجمع النبلاء من بلاده، مشرقاً مثل زهرة اللوتس، ومغطى بالأحمر مثل وردة.

وأخرجت الخيول، وجلبت الأسلحة، ووزعت على كل واحد حسبما

هو لائق، وجلب إلى الأنجيفي حصان اسباني، رائع المنظر والزينة، ومشهوراً أنه يسبق كثيراً من الطيور عندما يعدو، ثم وضع عليه درعاً لانظيره، بطانته مزدوجة، لا يمكن خرقه لابرمح ولا بحربة، ولبس زوجاً من الأحذية الحديدية المدعمة بتسميكتين من الزرد المقوى، وربط على قدميه مهازين من الذهب، وحمل ترساً مغطى بصور أسود ذهبية، ودلاه من على رقبتيه، ووضع على رأسه خوذة مرصعة بكثير من الأحجار الكريمة، وكانت عالية الجودة بحيث لا يمكن تحطيمها بحد السيف، وأحضر إليه رمح طويل من خشب الدردار وله سنان فولاذي، وآخر شيء حمل له سيف من الخزانة الملكية، وكان محفوظاً بها منذ زمن بعيد عندما صنع بعناية من قبل المعلم ويلاند Weyland.

وبعدما تسلح هكذا، انطلق إلى الأمام جندينا الشاب الذي كان زهرة الفروسية، واندفع مسرعاً بشكل متوازن، وبهي في عدوه، ثم ماذا يمكن أن يقال أكثر؟ وكرس ذلك اليوم لمجد وشرف الحملة الأولى، وأوقف كلية على ممارسة الألعاب العسكرية، ولبلوغ المجد الجسدي، ولمدة لاتقل عن سبعة أيام استمرت احتفالات الحملة الأولى الرائعة للفروسية في البلاط.

ومرة أخرى، جرى ارسال الرسل إلى فولك الخامس أوف أنجو، لإعلامه هذه المرة بوجود ذهابه إلى لامانس، وأن يكون هناك بعد مضي ثمانية أيام من أحد الشعانين، للاحتفال بزواج ابنه بشكل لائق، ولم يتأخر فولك، بل وافق مسروراً، ووصل حسبما أمر بأبهة عظيمة، وكان موجوداً باليوم المحدد والمكان المقرر.

وانطلق الملك هنري الأول، ملك انكلترا من روان ومعه ابن فولك وابنته الامبراطورة (لأنها كانت زوجة الامبراطور) ووصل أيضاً إلى لامانس في اليوم المحدد، وتقاطر الناس من جميع الجهات وتجمعوا لشهود قداس الزفاف، الذي سيتولى عقده رؤساء أساقفة، وأساقفة، ورعاة ديرة وكهنة من جميع المراتب.

وهكذا أعطيت ابنة الملك برباط الزواج إلى ابن كونت أنجو، وحصل الأساقفة على موافقة الزوجين المتبادلة على الزواج، لأن كل قوة الزواج وفعالته موجودة في الموافقة، وفي الحقيقة الموافقة هي التي تصنع الزواج، ووافق الاثنان، ووعد كل منهما بالاخلاص للآخر، الذي كانوا على وشك زفه، واحتفل بعد ذلك بقداسات مباركة لزواجهما.

وكان هناك سرور وسط رجال الدين، ورقص من قبل الناس، وصرخات شكر من قبل الجميع بلا استثناء، سواء منهم: الأجانب أو المحليين، والأغنياء أو الوسط أو الفقراء، النبلاء أو العامة، والجنود أو الفلاحين، لقد انغمروا جميعاً في سرور عام، وكل من لم يهتم بالاحتفال ويشارك به، بلا شك نظر إليه على أنه خائن، وأمضى الرجال والنساء الاحتفال بالزواج في تناول مختلف أنواع الأطعمة، واستمر الاحتفال بالزواج لمدة ثلاثة أسابيع بلا انقطاع، وعندما انتهى لم يغادر أحد من الحضور بدون هدية.

ثم ترك هنري الأول صهره وابنته وودعهما بقبلة سلام، وحول انتباهه نحو مسائل أخرى، وعاد الكونت فولك مع الزوجين إلى أنغر، وعندما كانوا مايزالون على بعض المسافة منها، سارعت المدينة بأسرها للاستعداد لاستقبالهم، وضدّرت التعليقات بالزينة، وزينت جدران الكنائس بالتعاليق والأغطية، وخرج رجال الدين في موكب ولاء لاستقبالهم، وهم يرتدون الألبسة الكهنوتية والشارات الطقوسية وبأيديهم الشموع، والكتب، والصلبان، ويغنون التراتيل وأناشيد الحمد، واستقبل السيد الجديد والسيدة من قبل الكهنة والشعب برقصات مهيبية، وعاشا بعد ذلك بهناء، وشرفاً جزيرة بريطانيا العظمى والأجزاء البحرية الأخرى بإنتاج وريث رائع [هنري الثاني المستقبلي].

ومنذ أن ارتقى والد غيوفري إلى مملكة القدس حسبما وصفت من قبل، أوقف الكونت الشاب وقته على إجادة استخدام السلاح، والنضال

في سبيل المجد، وقبل مضي وقت طويل جرى تسمية أحد الأيام م أجل مباريات مبارزة بين النورمان والبريتانيين فوق ربة رملية مناسبة، وجاء إلى مساعدة النورمان ووقف إلى جانبهم: وليم كليتو كونت فلاندرز، وثيربولد كونت بليوس مع أخيه ستيفن لورد مورتين، الذي سيكون الملك المستقبلي لانكلترا، وكان هؤلاء الثلاثة أبناء أخت لهنري الأول ملك انكلترا، وقابلهم الكونت وزاد تعدادهم، واصطف الطرفان المتنازلان، ووقف هناك صف البريتانيين، خفيف التسليح، سريع الانتباه، لكن قليل بالعدد.

وعندما رأى غيوفري أن تعداد القوات البريتانية التي تجمعت كان قليلاً، انفصل عن الحشد الكبير وقدم خدماته للبريتانيين، واحتشدت القوات واشتبكت الصفوف بالقتال، وكان هناك قراع كبير بالسلاح، وزعقت البوقات، وترددت أصوات النفير بنغمات كثيرة في حين زجرت خيولهم بأصوات مختلفة.

ولم مونت سينت مايكل نفسه بأشعة الشمس التي عكستها ترستهم الذهبية، وكان الرجال كأنهم رجل واحد في المبارزة، وتكسرت رماحهم وتحطمت سيوفهم، وانرضت الأقدام بالأقدام، وانكدمت الأكتاف بالأكتاف، وفرغت ظهور المطايا من شاغليها وألقى بالخيالة أرضاً، وأما الخيول التي رمت بركابها، وقطعت مقاودها، فقد جرت على غير هداية وهي تصهل، وسيطر الرعب على المتصارعين بشكل واضح، وطلب غيوفري خصومه وقاتلهم، وكان يركض إلى الأمام وإلى الخلف، يرمي بالحراوب ويلوح بالسيف، وقد حرم أعداداً كبيرة من حياتهم، واستمر البريتانيون يضغطون وكلهم أمل بالنصر، وكان الكونت يشق لهم الطريق ويقودهم، وقد أوقعوا كثيراً من القتلى في صفوف عدوهم، وضغط الأنجيفيون بحدة أعظم من حدة الأسد، وتقدمت صفوف البريتانيون وهي تضغط نحو الأمام، وكانت واثقة من النصر، ولحق

الإعياء بالنورمان نتيجة للصراع الكبير، فأبدوا ظهورهم وأخذوا بالفرار، وهكذا هُزمت الأكثرية من قبل الأقلية، وأرغم النورمان على اللجوء إلى معسكرهم، وهنا عندما شعروا بالهلع نتيجة الفوضى غير المتوقعة اقترحوا على البريتانيين اللجوء إلى المبارزات الفردية.

وعندما وصلت أحاديث المبارزات إلى ماوراء البحر، وصل جندي سكسوني هائل البنية، وقد منحت قوته وجرأته النورمان الاطمئنان بنيل النصر، وتقدم هذا الجندي من المعسكر النورماني، وكان أطول من أي انسان آخر بشكل واضح جداً، واتخذ لنفسه موقفاً في مكان واضح، وتحدى صفوف البريطانيين في أن يتجرأوا على تسمية رجل يستطيع أن يلاقيه في مبارزة فردية، وامتنعت وجوه الذين أصغوا إليه وعلاها الاصفار، وتلاشت القوة واختفت من صدور الرجال الشجعان، وخافوا على الانسان الذي سيخرج لمبارزة مثل هذا الوحش الهائل.

وراقب غيوفري هؤلاء الرجال الشجعان، وقد تحولوا إلى ضعفاء يصرخون بالويل والثبور عندما كانوا يدعون شخصياً إلى المبارزة، وهنا صرخ بشكل خيف، ورفض تحمل مثل هذا العذاب والاهانة والتحديات التي كانت تأتي متوالية، فامتطى فرسه، وحمل سلاحه، ومضى نحو النزال أمام الحشد الذي وقف يراقب مايجري من جميع الجوانب، لقد توجه ليمارز ذلك الجندي العملاق، وكان القتال قاسياً، فقد حمل ذلك الانسان، الذي فاقت قواه قوى الانسان العادي، رمحاً اسطوانته مثل جذع شجرة، وعندما كان يقاتل الشاب الأنجيفي خرق ترس الكونت مع لأمته، لكن دون اراقة كثير من الدماء، غير أن بطلنا ظل ثابتاً لم يتزلزل، وكأنه متجذر على ظهر فرسه، وقام برمي خصمه بحربة فصرعه، ومن ثم وقف فوق جثة عدوه فقطع رأسه بسيفه، واقتاد فرس الرجل المهزوم بيده المنتصرة، وباستحواذه لغنيمة حربه هذه، جلب العار إلى النورمان والفخار إلى رجاله، وطار خبر نصره وانتشر في كل مكان، ومن

عادة النبلاء الأشرار أن يغاروا من الرجال المستقيمين، ولهذا قالوا: صحيح أن غيوفري هو صهر الملك، غير أنه لا يشعر بالأمان إلا بين رجاله حيث لا يخشى من الوقوع بالأسر، ولهذا السبب نجد أن الفارس الأصيل والممثل الحقيقي للفروسية طلب الحصول على حلاوة الشهرة، وكان تواقاً للرياضة، لذلك نشد المبارزات في فلاندرز، وناضل في سبيل الحصول على فرص يحقق فيها أعمالاً عظيمة، فقد كان يرغب بالمديح وكان يستحق ذلك.

وكان غيوفري يتمتع بالصيد عندما كان الوقت يسمح له، وكانت هذه الممارسة مفيدة ومتوفرة للبعض وفيها خلاص من الاهتمامات الثقيلة، وتعيد الانسان متحرراً وكأنه ولد من جديد، وهو —فضلاً عن ذلك— مستعد للقيام بالواجب، وكان الصيادون يدخلون إلى الأعراش، ويطلقون كلابهم الذكية حسبما جرت العادات، وكانت الكلاب تتبع أثر الحيوانات بشم بقايا روائحها، وهكذا كانت تعثر عليها بسرعة من الصعب تصديقها، كما كانت تقود الكونت بوساطة عوائها.

وأسرع الكونت هذه المرة ليجتاز الممرات الملتوية والدائرية وليبقى قريباً من كلابه الملاحقة للصيد، وقد تسلق أسرع الطرق، لكن بدون حظ، لأن الحيوان الذي أمل أنه اقترب منه بوساطة كلابه، أرغم على الفرار باتجاه ما، وفي هذا الوقت مع أنه اعتقد أنه ما يزال قريباً من مرافقيه أكثر منه من كلابه، كان في الحقيقة بعيداً عنهم كثيراً، وكان تاه اليوم كله وأمضاه بحثاً، فلم يعثر لا على رفاقه ولا على كلابه، ولم يرههم في أي مكان، وأخيراً، والشمس قاربت على المغيب رأى عن بعد فلاحاً وسط بقعة غير مزروعة، وكان الرجل مغطى بالسخام، وارتدى ثياباً سوداء غطت جسده حتى حقويه، وكانت حرفته ظاهرة مما ارتداه، وكان يشقى في صنع الفحم للصناع، ولهذا السبب كان وجهه وكانت ثيابه كاسبة لهذا اللون.

وعندما رآه غيوفري لم يزدده بحكم كونه رجلاً ثرياً، وله مكانة عالية، بل تصرف تصرف رجل عارف، رجل يعاني من الوحدة، وهكذا ندب سوء الحظ، متذكراً ماقاله ذلك الرجل القديم: «بعرق جبينك تأكل خبزك».

وحياه غيوفري بكلّ لطف، وسأله: «هل يمكنك أيها الرجل الطيب اخباري عما إذا كنت تعرف الطريق الذي يقود إلى القلعة في لوشي»؟. ورد عليه الرجل: «لو أنني لأعرف، لما كان بإمكانني أخذ فحمي إلى هناك دوماً لبيعه».

وقال الكونت: «بناء عليه، خذني أيها الصديق العزيز معك في طريقك إلى الطريق الرئيسي، قبل أن أضيع تماماً في هذا المكان المنعزل وسط الأحرش».

وأجابه الفلاح بقوله: «أنت يامن تمتطي حصاناً لاتعاني من مشكلة اطعام نفسك، وكساء جسدك، لكن إذا توقفت أنا عن العمل سأموت وستموت أسرتي معي».

فأجابه قائلاً: «أرجوك تعال بدون تأخير، وخذني إلى حيث سألت، ذلك أنني سوف أدفع لك ثمن رحلتك».

ثم نظر الرجل إليه بشيء من الريبة، وتمتم قائلاً: «لأدري أيّ قدر سهاوي حل بي»، ثم انحنى وقال: «إنني لن أخاف مما سيحل بي، ولسوف أذهب معك، إلى حيث تأمر».

وعانقه الكونت بسرور، وطلب منه أن يركب خلفه فيكون رديفه على حصانه، وتولى الفلاح بكلّ سرور وضع الكونت على الطريق الذي كان يبحث عنه، ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، وكان طوال الطريق يتأمل تواضع هذا الرجل النبيل، ووداعته الرائعة.

لكن تبع ذلك أشياء أخرى:

فقد افتتح الكونت حواراً لطيفاً مع الفلاح، وكان بين مأسأله عنه: «ما الذي يقوله الناس عن كونتنا؟ أخبرني أيها الصديق الطيب، وكيف يرون النبلاء ويقوموهم، وماهي مواقف الرأي العام؟».

وأجابه الرجل الآخر قائلاً: «فيما يتعلق بالكونت، والأشياء التي وقعت في حضوره، لانتقول، ولانشعر بأي سوء نحوه، لكن ياسيدي مانعاني منه هو عدد من الأعداء الذين هوليس على دراية بهم، والأشد سوءاً بينهم، هم الأكثر خفاء وسرية، لأنه ما من عدو من الصعب الاحتراز منه، وهو جاهز للأيذاء، مثل العدو الداخلي، ومثل هؤلاء نحن لانتجراً على مقاومتهم».

وقال الكونت: «لكن هل من الممكن لمولانا الكونت التغلب على آرائهم، أو التخلص منهم؟».

وأجابه الرجل: «يمكنه أن يفعل العملين، يمكنه فعل ذلك ياسيدي إذا لم تنفذ هذه الأفاعيل الشريرة تحت ستار تقديم الطاعة له».

فقال له الكونت: «أخبرني بعناية أكبر حول هؤلاء الأعداء، وأوضح لي أفاعيلهم الشريرة، فلعلي حينها يحين الوقت، لن أكون صامتاً أمام الكونت». فأجابه:

«ياسيدي إن الذين يتولون ظلمنا هم الكتاب والحجاب والعاملين الآخرين لدى مولانا الكونت، فكلما جاء إلى إحدى قلاعه، يستولي عماله على كثير من البضائع على أساس السلفة أو الدفع فيما بعد، ويأخذون كل ما يجدونه بدون سؤال أو تسعير، ويظل الباعة صامتين، ويغادر الكونت، فيطالب أصحاب الديون بالدفع، وهنا ياسيدي من المؤلم أن أذكر، أنهم إما ينكرون كلية حصولهم على أي شيء أو يسوفون ويؤجلون الدفع حتى يقبل أصحاب الديون بكل سرور بنصف ما لهم من مال».

ثم قال بطلنا وهو يتسم للفلاح، ولكن وهو أيضاً يخفي الغضب الذي كان لا يمكنه منع نفسه من الشعور به وأنه غذي بشكل وحشي إلى هذه الدرجة: «لكنهم يمتلكون أراضي خصبة للاشيء هؤلاء الرجال الذين اغتصبوا ما هو حق للكونت، وجعلوه يعيش دون أن يدري على السحت، ثم أضاف يقول: سلام، سلام، لكن لاسلام حيث الأرض عيث بها إلى هذه الدرجة من السوء من قبل الأعداء الداخلين».

وأخبره الفلاح: «لكنك ياسيدي لم تسمع كل شيء بعد»!

وقال غيوفري: «أنا سوف أستمع بسرور إلى كل شيء، اشرح كل شيء بعناية ولطف وعدل، لأنني أحب الكونت، ومن المفترض على أساس صداقتي له، سوف أخبره بكل تأكيد بما يفعلونه».

وتابع الفلاح يقول: «لعله بفضل ارادة الرب أن حدث ولقيتك لأسمعك اليوم ما لا يمكنني شخصياً أن أخبر به الكونت، وهذا لن يخفى عن الكونت بوساطتك، ولهذا استمع ياسيدي، لكن ليس لما هو أسوأ:

بعد جمع المحاصيل، ينطلق وكلاء الكونت إلى القرى، وبالنسبة للقانون الجديد نجدهم يفرضون على كل فلاح حصة يحصلونها من محصوله بكل عنف، ثم — ومرعب أن نروي — يطلب هؤلاء الرجال جزءاً من ستة عشر من المحصول، أو يطلبون من أحدهم جزئين من ستة عشر، أو من بعضهم أكثر إذا ما استطاعوا التحصيل، وإذا ما صدف واعترض أحد الناس على هذه الفريضة، يجر إلى المحاكمة، ويعذب من قبل أتباع الوكلاء ويحاكم، ويتهم بجرائم مزيفة، وهكذا مامن أحد ينجو من الأيدي الجشعة للقضاة الأشرار، حتى يفلس، ويأسف أن جهوده لم تصمد أمام هؤلاء الذين يحفظون القانون».

وفكر الكونت وردد في قرارة نفسه: «ليلحق الشربالذي أوجد مثل هذه القوانين»، ثم رفع صوته وهو يقول: «الانتقام هو عملي، وسأنزل

العقاب هؤلاء قبل مضي وقت طويل»، ثم تابع يقول:

«أخبرني المزيد، ولاتبق شيئاً لديك، ماذا لديك أيضاً لتسمعي عن هؤلاء الرجال المشهورين؟، وهل يعلم الكونت بهذه الأعمال الشريرة؟».

وأجابه الفلاح: «إنه لأمر مدهش كيف أنهم استطاعوا ياسيدي اخفاء هذه الأعمال عن مولانا الكونت، مع أنهم يفعلونها بحضور الجميع، مالم تكن العادة الرائجة أن يكون السادة آخر من يعلم بما يجري في بيوتهم، وسأضيف حدثاً آخر لما تحدثت عنه، ثم سأوقف حكايتي، مالم أكن أسبب أذى إلى مسامعك اللطيفة؟».

وقد قال ذلك بنبرة اعتذار ريفية.

ورد عليه غيوفري قائلاً:

«قل ولا تخف أبداً، فما من أحد يتكلم ببيان أوضح ممن يتحدث بالصدق، ويروي الحقيقة».

وتابع الفلاح حديثه قائلاً:

«عندما تسمع بعض النذر باقتراب وقوع حرب، سواء أكان ذلك صحيحاً أو مخترعاً من قبلهم، يرسل هؤلاء الوكلاء وقتها رجالهم للقيام ببذل جهود عظيمة في نشر الاشاعة، ويقومون بوساطة الاعلانات والأوامر العامة التي يذيعها المنادون بحشد الفلاحين من جميع الأجزاء لملاء القلاع بهم، بحجة تأدية واجب الحراسة، وبذلك يتركون الأرياف مهجورة، ثم يقوم أتباعهم فيبعثون بشكل سري فيستدعون بعض الأفراد، ويظهرون لهم أسفهم لما لحقهم من خسارة، وكأنهم لا يريدون سوى مواساتهم دوماً، ثم يشجعون الفلاح للقيام بشراء أذن بالعودة من الوكلاء عن طريق عرض بعض الهدايا وتقديمتها بشكل سري، ويعرضون ذلك وكأنه نصيحة جيدة، وكان بالنسبة لكل رجل سمح له بالعودة عدد آخر، من

الفلاحين التعساء، المثقلين بالديون ولا يمتلكون سوى دريهمات فيقرضونها لآخرين وبذلك يرغمون على البقاء بالفلاح، هؤلاء هم يا سيدي الذين تتأثر الأرياف بهم بكل مرارة، والذي يشقى في السلم مثله في سوء الحظ مثل الذي يموت في الحرب» وأكمل الفلاح حديثه وقال كل هذا عندما أخذوا يدخلون إلى البلدة.

وينبغي عدم تجاوز الاشاعات التعيسة التي ازدادت أثناء غياب الكونت، ففي بلاطه سأل كل انسان الآخر عن غياب غيوفري، وأين يمكن أن يكون، ومامن واحد أجاب بأخبار طيبة، ومع حلول الظلام تعاضمت أحزانهم كثيراً، وتوقف الجميع عن الحركة بأعين مرعوبة محدقة بالطريق التي اعتاد أن يعود عبرها من الغابة، وفجأة وصل الشخص الذي طال انتظاره، وقام بسرور بتقديم التحية لأول رجل التقاه، حسبما كانت عاداته، ولدى ملاحظة ذلك الرجل صوت الكونت لم يستطع اجابة تحيته لسروره، ولأنه ركض أمامه وهو يصرخ بكل ما أوتيه من قوة بأن الكونت قد عاد، وكان يشير إليه.

ثم لاحظ الفلاح وعرف الشخصية التي كان يقودها ويتحدث معها، فافتنع أنه لم يعد بإمكانه البقاء رديفاً للكونت، وهكذا حاول فجأة أن يقفز نحو الأرض، وأدرك الكونت ما يجري وتنبه له فأمسك به وهو يحاول النزول، وقال وهو يبتسم:

«هل يتوجب عليّ هكذا العمل للتخلص من الدليل الذي تمكنت بمساعدته من العودة إلى شعبي؟ إن هذا لن يكون»، والجماهير تتدفق حوله من كل جانب، حمل الفلاح ووضع عاليًا على ظهر حصان الكونت سواء أراد ذلك أم لم يرد.

وجاء وقت المائدة، وكان الفلاح قد غير ملابسه وارتدى ثياباً فخمة زوده بها الكونت، وجلس الفلاح وسط الرجال القيايين لدى الكونت،

وجرى تكريم الفلاح وتبجيله بتقديم أفخر الصحون له، لقد تناول الفلاح طعامه بأنية ذهبية، أما المغامرة التي واجهها الكونت فقد تولى روايتها الفلاح وكذلك الكونت.

وعندما عاد الكونت من القديس في اليوم التالي، أمر باحضار دليله، وخاطبه قائلاً:

لقد حررتك وحررت ورثتك من جميع الضرائب والخدمات، وأمرت بأن تكون رجلاً حراً، حراً في كل مجال، وبناء عليه عدت إلى أسرتك ومارس الحياة الهينة التي ترغب بها، وما ان أنهى خطابه حتى أمر بمرافقة الرجل إلى حيث كان يقيم.

وبات الكونت متفوقاً على الجميع لأنه جعل واجبه حماية الضعفاء، وسأعرض الآن أمامك مثلاً عن الطريقة التي عرف بها كيف يخضع الأقوياء.

وكان الكونت ثيوبولد الثاني صاحب بليوس وشامبين رجلاً مشهوراً، وكان من أغنى الفرنسيين في أيامه، وكان مستقيماً تماماً وخالياً من اللوم، وفي داخل دويلته كان وليم كونت نافار وهيو صاحب كوسني Cosne ، الذي يعرف بلقب مانسيو Manceau في خصام دائم فيما بينهما، مع أن ثيوبولد كان يدعوهما دوماً، ويعرض خلافاتها أمام محكمته، وأخيراً قام ذلك الشرير صاحب نافار، الذي فضل أن يهزم عدوه بالقوة وليس باللجوء إلى القانون، بالفرار من بلاط ثيوبولد.

كان في تلك الأثناء لويس السادس ملك فرنسا يسعى بهدوء نحو تمكين سلطانه بتوجيه من سوكر راعي دير سانت دينس (٩).

وفي خلال الصراع الطويل والمستمر الذي تلا ذلك طلب كونت نافار

مساعدة ملك فرنسا لويس السادس مع مساعدة أسقف أوتون Autun وساق هذان الرجلان جيوشين عظيمين وزحفا إلى جانبه، ذلك أنه أراد محق عدوه تماماً، وعلى هذا الأساس حشد الملك والأسقف والكونت جيوشهم الثلاثة وحاصروا هيو في القلعة التي اسمها كوسني، ولم يعد أمامه أدنى أمل بالنجاة، طالما أن القوات طوقته من كل جانب، ولم يعد أحد يتمكن من الدخول إلى القلعة أو مغادرتها، وفي حالة اليأس هذه بعث مانسيو برسول إلى الكونت ثيوبولد ليشرح له المأزق الصعب الذي هو فيه وليطلب المساعدة، وبدون تأخير، لوجود خطر كبير بالتأخير، أمر ذلك الانسان الجيد رجاله بالذهاب إلى هناك، وطلب من جيرانه وحلفائه المساعدة أيضاً، ونشد بين هؤلاء مساعدة غيوفري صاحب أنجو، وكان واثقاً من قدمها، لأنه اعتمد اعتماداً كلياً على مساعدة هذا الكونت، ولم يتقاعس بطلنا، فقد كان دوماً سريعاً جداً في تقديم العون إلى أصدقائه، وإذا ما وعد بتقديم قوة كان يفي بتعهداته لأنه كان صادقاً.

وحشد غيوفري كوكبة تألفت من مائة وأربعين فارساً من النخبة والمسلحين بشكل جيد، وأرفقهم بثلاثمائة من قوات الاحتياط وبادر مسرعاً بالتقدم، ووحد قواته مع قوات ثيوبولد، وزحف الرجلان معاً لانقاذ مانسيو المحاصر، لكن أخبار قرب وصولها طارت أمامها ووصلت إلى مسامع ملك فرنسا، الذي قام بعقلانية وحكمة بإزالة معسكره والتخلي عن الحصار.

وجعلت كراهية الأعداء كونت نافاريتاً خرو ويتقاعس عن الفرار بعض الوقت، وتولى على كل حال الكونت غيوفري مطاردته، بينما تعامل الكونت ثيوبولد مع الذين بقوا، ثم ما كان عليك سوى أن ترى غيوفري النبيل ومعه رفاقه الشرفاء، وهو يحمل ترسه المزين بصورة أسد، مع أنه في الحقيقة لم يكن أقل شجاعة أو حدة من الأسد، وطارد الفارين وكأنه

صاعقة عسكرية، أو توجه لمساعدة رفاقه، فاستطاع أن يفتك بسيفه ببعض الفارين، أو يلقي ببعضهم الآخر أرضاً وهم مصابين، فما من واحد من الهاربين نجا دون اصابة بجراحة.

ثم ماهو المزيد؟ فعندما مات كثيرون، وفر أكثر، أخذ غيوفري كونت نافار نفسه أسيراً، وسلمه مكتوفاً إلى الكونت ثيوبولد.

تميز كونتناغيوفري آنشد بهذه الفضائل السامية وبتماسك الذات، فقد كان بإمكانه بلحظة واحدة أن يكون انسانياً ورحيماً ولطيفاً ومستقيماً، ثم قوياً شجاعاً متحمساً، فهكذا كان بإمكانه حقاً أن يحافظ على الضعفاء، ويخضع الأقوياء.

كان في الوقت نفسه فولك صاحب أنجو، وملك القدس يصطرع في الأراضي المقدسة ضد القوى المتنامية للمسلمين بقيادة زنكي، الذي حكم الموصل منذ سنة ١١٢٧، ولقد أوجت نجاحات زنكي المتوالية أن القدس ربما تسقط، لولا أن بادر في ثلاثينات القرن الثاني عشر كل من أمير دمشق وامبراطور القسطنطينية إلى مساعدة فولك. وفي سنة ١١٣٦، استدعى فولك ريموند أوف بواتيه، وهو الابن الوسيم والقادر للدوق وليم التاسع صاحب أكوطين، إلى فلسطين، وجعله خطيباً لأميرة أنطاكية كونستانس التي كانت في التاسعة من عمرها، وكان هذا عملاً استراتيجياً هاماً اعتمدت عليه مملكة القدس، فقد توفرت الحاجة إلى ريموند لتقديم المساعدة لفولك في دفاعه عن الأراضي المقدسة.

بعد مرور عدة سنوات، وبينما كان الكونت غيوفري ينعم بالازدهار، شن روبرت أوف سابل Sable مع حلفائه الحرب ضد غيوفري.

يتولى الآن يوحنا أوف مارموتير **Marmoutier** بالتفصيل وصف الحملات الكثيرة التي قام بها غيوفري ضد أصحاب قلاعه العصاة، الذين كان بينهم سادة سابل.

صار روبرت صاحب سابل باروناً لجميع المنطقة بوساطة أيان فاسدة أداها له رفاقه، حتى إلياس، الذي كان آنذاك كونت مين Maine وهو أخو كونت أنجوى، تأثر بنصائح الرجال الشريرين فقاتل أخاه، وعندما أسر غيوفري إلياس، أبقاه في السجن لأيام كثيرة في تور، لكن بعدما أطلق سراحه منه، توفي هذا الشاب، بسبب إصابته بمرض خطير وهو في السجن.

وأمسك في الوقت نفسه غيوفري بالفرصة التي توفرت له، فقام بعد استشارته لرجاله، بدخول أراضي أعدائه، مقدراً أنه من الحكمة أن يهاجم في أراضيهم، بدلاً من أن يدعهم يتولون مهاجمته، وبناء عليه قام الكونت نفسه وبصحبته نخبة من فرسانه مع أعداد كبيرة من الرجال، بالزحف ضد أولئك الناس العصاة والمعادين له، وأرغمهم فوراً على الفرار، وكذلك أرغم مشاتهم على الهرب، وهنا خرج رجال روبرت ضد الكونت، وهنا تمتع عن القتال مواجهة، ذلك أن قوات سابل غيرت أوضاعها لدى اقترابه وأقامت عدداً من الكمان، وهنا رأى غيوفري أنه بات من الضروري بالنسبة له أن يعدّ قواته من أجل القتال، فاستطاع ردّ روبرت أوف سابل إلى داخل القلعة، وذلك بعدما عرض عدداً كبيراً من رجاله للموت أو الإصابة بجراح أو السقوط بالأسر، وإثر هذا قام الكونت المنتصر بالعودة إلى مكانه.

### سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف

بعد مضي أربع سنين على الزواج السالف الذكر [بين غيوفري وماتيلدا] ولد هنري الابن الأول للكونت غيوفري، وهو سيكون هنري الثاني الملك المستقبلي لانكلترا، وفي السنة الخامسة ولد غيوفري، وفي السنة السادسة جاء وليم.

### سنة خمس وثلاثين ومائة وألف

في سنة ألف ومائة وخمس وثلاثين، وفي اليوم الأول من كانون الأول توفي هنري الأول ملك انكلترا، وكان عمره سبع وسبعين سنة تماماً، وجاء موته بعدما أمضى بالحكم خمساً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، وحدثت الوفاة في روان Rouen في مكان يحمل اسم ليون —لى— فورت Lyons-La-Foret واحتفظ النورمان بأحشائه، وحمل الانكليز بقية الجسد إلى قبر في دير في ردنغ.

وإثر وفاة الملك هنري اعتلى العرش بشكل غير شرعي ستيفن، كونت مورتين Mortain ، وكان أخاً لثيوبولد الثاني، كونت بليوس وشامبين، وابن أخت للملك المتوفى، وتتوج ملكاً في انكلترا. ودخل في تلك السنة غيوفري صاحب أنجو، ومعه رجال منتخبين، إلى نورماندي، عازماً على الاستيلاء عليها، لأنها ميراث لابنه.

وفي الوقت نفسه عبرت الامبراطورة ماتيلدا البحر، وبصحبتها كوكبة من الفرسان، ومع أنها امرأة، هاجمت بكل قوة ورجولة الانكليز، مصرّة على أن ميراثها الشرعي سوف تحصل عليه بقوة السلاح، وانتشرت الأخبار

بسرعة، ووصلت إلى مسامع الملك ستيفن، وأعلنت أن المملكة باتت في خطر، لأن الامبراطورة أخضعت بالقوة كثيراً من الانكليز، وأعداد كبيرة منهم استسلمت لها على الفور، وأنه مالم يبادر بالعودة مسرعاً إلى انكلترا سوف يفقد تاج المملكة، وقام الملك المرغم بالأخبار السيئة بالابحار مع أكبر عدد من الرجال الذين توفرأوا له من حشود عساكره.

ثم أعطانا يوحنا أوف مارموتير رواية مثالية عن احتلال غيوفري لنورماندي [١١٤٢-١١٤٤] تدل -بشكل غير صحيح- أن تقدم الكونت قوبل بحماس أعظم من العدوانية في الدوقية.

ثم إن الكونت النشيط القوي، أدرك في حربه وصراعه ضد الجيش المحشود من قبل ستيفن وتأكد أن الرب سيقا تل إلى جانبه ضد قلاع الملك غير التقي، ولدى معرفته بأخبار تراجع الملك، لم يضع فرصة تقدمه في تلك الساعة، بل تابع زحفه نحو الأمام، فدخل إلى البلاد، وحاصر مورتين، وأخذ رهائن وتأمينات، واستقبل السكان بسلام، وحكمهم بشكل انساني، وحافظ على ممتلكاتهم دون أن تتعرض للأذى من الجيش.

ثم نقل الكونت جيشه، وجاء إلى كيرنتان Carentan ، وبعدما تسلم هذا الموقع بدون قتال، بادر مسرعاً إلى مدينة بيو Bayeu ولدى سماع السكان والأسقف باقترابه، خرجوا بسلام وهم يبدون سرورهم، وتقبلوه وتقبلوا سلطته، وقدموا له الولاء وأقسموا متعهدين بمساعدته ضد جميع أعدائه.

وتحرك الكونت من بيو، وأخذ طريقه نحو سينت لو، حيث كان أسقف كاوتنس Cautances المسيطر على الموقع، قد تولى تحصين الموقع ضده، وكان عدد الجند في داخله حوالي المائتين، وقد خرجوا لانشاب القتال ضد الكونت، وقد أرغموا مع أول اصطدام على الفرار عائدين إلى البلدة، وصمدوا فقط في اليوم الأول والثاني، واستسلموا في

اليوم الثالث وفتح المدافعون الأبواب، وطلبوا السلام، وقدموا رهائن، وأقسموا على تأدية الولاء، وعلى الطاعة للكونت (١٠).

ثم قصد مدينة كاوتنس ووصلها، وهي مدينة واقعة في مقاطعة كوتنتن، ودخل الكونت إلى هذا الموقع، واستولى عليه بلا مقاومة (لأن الأسقف كان بعيداً)، وكان مشحوناً بالقوات والعتاد، ثم جمع بعد ذلك بارونات مقاطعة كوتنتن، وطلب تقديم الرهائن منهم، وجاءوا جميعاً، وأدوا الخدمات المطلوبة، باستثناء رالف مع أخيه رتشارد دي لي هي Haye ، وقام الأول بتحسين قلاعه ضد الكونت، بينما تمركز الآخر مع قوة كبيرة من الجنود فيها مائتين أو أكثر من العساكر، في شيربورغ Cherbourg ، حيث ظن أن بإمكانه هناك امتلاك القدرة على الصمود في وجه الكونت، غير أن الكونت، صاحب القلب العظيم، تولى أولاً العيث فساداً في منطقة رالف، وحاصر قلاعه، ثم تمكن بوساطة قوة عسكرية من أسر رالف نفسه، ولقد تأخر رالف كثيراً في تقديم التوبة، وذلك بعدما تولى قتال الآخرين، لذلك تقبل بهدوء الوقوع بالأسر والخضوع.

وزحف غيوفري الآن إلى شيربورغ، وذلك بعدما قام بتنظيم الجنود الذين رافقوه، وأعد بكل براعة وحرص آلات الحصار، وبذلك كان جاهزاً باستعداداته الحربية، وكان يوليوس قيصر قد شيد في شيربورغ حصناً، وذلك أثناء استعداده لغزو بريطانيا، وقد أحاط هذا الحصن أسوار على درجة عالية من القوة، وأقيمت أبراج كثيرة في اطار السور، حتى بات من المتعذر أن يستطيع جندي غرس رحه بينهم، وأقام برجاً أعلى من الأبراج الباقية وسط التحصينات، وشيد قاعة ملكية، وإلى هذا الحصن فرّ بعد أول هجوم قام به ضد بريتاني، وأطلقت لذلك بعض الروايات العادية اسم قلعة قيصر على هذا الحصن.

وبعدما احتل رتشارد دي لي هي هذا الموقع، شحنه بالفرسان

والجنود، والرجال المسلحين مع كمية كبيرة من المؤن والعتاد، ثم حرضهم على مقاومة غيوفري بكل ثبات [ذلك أن رتشارد قرر عبور البحر والذهاب إلى الملك ستيفن، على أمل أن يعود من عنده وهو يقود قوة من الجند، يرغم فيها الكونت غيوفري على الفرار وذلك بعد رفعه للحصار] وفي الوقت نفسه تابع الذين كانوا في الحصن مقاومة الكونت، معتمدين ليس فقط على شجاعتهم وعلى المخزون العظيم من المؤن الذي خزنه الطاغية رتشارد دي لى هي هناك، بل أيضاً على دفاعات الأبراج التي لا ترام، وقد قذفوا المهاجمين بالحراب الحربية، وبالشتائم المقذعة، ورد عليهم المهاجمون كل رماية برمية، لكن ليس كل كلمة بكلمة، غير راغبين في أن تكون ردودهم فارغة، وقاتل الرب الذي بيده جميع القوى والممالك لصالح الكونت، فصد أعداءه، وأنجح مقاصده، ذلك أنه عندما أبحر رتشارد دي لى هي، وقع بأسر القرصان الذين حملوه إلى أراض أجنبية.

وحملت الأخبار غير المفرحة إلى الذين كانوا يقاومون الكونت، وارتدت وجوه المحاصرين وعلاها الحزن، وتهاوى أملهم المهزوز، ولم يعد في مقدورهم سوى التفكير بالفرار، ولم يجدوا أمامهم منفذاً لفعل ذلك، ولهذا سلموا الحصن القوي المشحون بالمؤن، وأعلنوا عن رغبتهم بالاستسلام لسلطة الكونت ووضع أنفسهم تحت تصرفه، وتعهدوا بأيمان مغلظة بالولاء له، وإثر تنفيذ هذه الأعمال، قدر الكونت أن حلول الشتاء قد اقترب، وبعدهما أخذ ما أخذه من القلعة أذن لجنده بالانصراف.

واستمر الصراع طويلاً فيما بين ستيفن، الملك المزيف، وغيوفري كونت أنجو، وكان شأن غيوفري يزداد علواً دوماً وهو يزداد نشاطاً في نفسه، بينما كان ستيفن يضعف يوماً.

واعتاد الملوك والأمراء التوجه إلى الحرب بعد انقضاء الشتاء القاسي والعاصف، وعندما تبدأ رائحة الربيع الدافئة تملأ الهواء، وتتحول البراعم إلى زهور، وعندما تغدو حدائق الورود تعج بالورود الجديدة بعدما كانت

قبل قليل جرداء، وعندما تأخذ أزهار الليلك البيضاء تتمايل أمام  
الأعين...

يرسم هنري أوف هنتنغدون **Huntingdon** صورة مختلفة  
تماماً حول الصراع بين أسرتي بليوس وأنجو في سبيل السيطرة على نورما  
ندي وانكلترا والتحكم بهما، ولم يكتف المؤرخ في اظهار بعض التعاطف  
—المحق— نحو ستيفن، بل نظر إلى حوادث حكمه وتفحصها في  
الاطار الانكليزي—والسكوتلندي— تماماً، وسيظهر هذا على الفور في  
وصفه لموت هنري الأول، ووصول ستيفن إلى العرش في سنة ١١٣٥.

إثر وفاة الملك هنري الكبير (١١٣٥) تناول الشعب البحث بحرية  
حول أخلاقه، وذلك حسب العادة ، بعد وفاة الناس، فقد أصر بعضهم  
واتفقوا على أنه كان متميزاً تماماً بثلاث مواهب، وكانت هذه:

حكيمته العظيمة، لأن آراءه كانت عميقة، وكانت بصيرته نافذة،  
ولفصاحته الآسرة ولنجاحه بالحرب، فبالإضافة إلى كثير من النجاحات  
والإنجازات، كان هو المنتصر على ملك فرنسا [لويس السادس]، ولثرائه،  
الذي فاق به جميع سلفه من الملوك، واتخذ آخرون —على كل حال—  
مواقف مخالفة، وعزوا إليه ثلاثة معائب: فبالنسبة لثرائه، صحيح أنه كان  
عظيم الثراء بالمقارنة مع أجداده، إنه أفقر الناس بالضرائب والمكوس،  
وأرهبهم بالمتاعب على اختلاف أنواعها، وكان بلا رحمة، وفي هذا المجال  
اقتلع عيني قريبه، كونت مورتين الذي كان لديه أسيراً، علماً بأن هذه  
الفعلة الشنيعة والمرعبة لم تكن معروفة، وكشفت بعد وفاته مع أسراره،  
وقد ورد ذكر أمور أخرى وحوادث، أنا لن أقول عنها شيئاً، وكان شبقاً،  
ذلك أنه كان مثله مثل الملك سليمان مستعبداً من قبل الاغراء الجنسي  
النسائي، وكانت الأخبار منتشرة من حوله ومتداولة، لكن كل ما فعله

الملك هنري سواء بالطغيان أو عدلاً كملك يبدو رائعاً بالمقارنة مع الأيام المقبلة بعده التي ألهبت الأمور بوساطة عنف النورمان.

فقد جاء ستيفن بكل سرعة، وهو الأخ الأصغر لثيوبولد كونت بليوس، وكان صاحب عزيمة، ورجلاً جريئاً، لم يتم اعتباراً ليمين ولائه لماتيلدا ابنة هنري، جاء متحدياً الرب بالاستيلاء على عرش انكلترا بجرأة ووقاحة، وكرس وليم رئيس أساقفة كانتربري الملك الجديد، مع أنه كان أول من أقسم يمين الولاء لماتيلدا، ولهذا يالأسف زاره الرب ومعه الحكم نفسه الذي أوقع على الرجل الذي ضرب أرمياء الراهب الكبير، فمات خلال العام، وكذلك حدث لروجر الأسقف القوي لسالسبري، وكان قد أدى يمين الولاء نفسه، والآن أقنع الآخرين أن يفعلوا الشيء نفسه، وصرف جميع قواه في سبيل رفع ستيفن إلى العرش، وتعرض هو أيضاً لحكم الرب العادل، فألقي بعد أمد في السجن، وواجه نهاية مؤلمة، أوقعها عليه الملك نفسه الذي ساعد على صنعه.

وباختصار حوّل جميع الايرلات والبارونات الذين قد أدوا يمين التبعية لماتيلدا، ولاءهم إلى ستيفن وقدموا له فروض الطاعة، ولقد كان فآلاً سيئاً أن تقوم انكلترا كلها بسرعة، وبدون تردد أو صراع، وبلحظة مثل طرفة عين، فتخضع لستيفن، وبعدهما جرى تتويجه عقد بلاطه في لندن.

### سنة ست وثلاثين ومائة وألف

وجاء الملك ستيفن في السنة الأولى من حكمه إلى أكسفورد، فأخبر أن داود ملك السكوتلنديين، تظاهر بأنه قادم لزيارته زيارة صداقة، فزحف إلى كارت ايل ونيوكاسل، واستولى عليها مخادعة، ورد الملك على الرسول الذي حمل إليه الأخبار: إن ما حصل عليه بالمخادعة سأرغمه على التخلي

عنه، وبناء عليه حشد الملك ستيفن على الفور أعظم جيش حشد في انكلترا عرفه الناس حتى الآن، وقاده ضد الملك داود، ولقد التقيا في دور هام، وهناك تصالح ملك السكوتلنديين مع ستيفن وسلمه نيوكاسل غير أنه احتفظ بكارايل وذلك بموافقة من ستيفن، ولم يقدم الملك داود الولاء للملك ستيفن، لأنه كان أول الناس من غير رجال الدين، قد أقسم يمين الولاء لابنة الملك المتوفى، التي كانت ابنة أخته، وقد اعترف بها ملكة على انكلترا بعد وفاة أبيها، لكن الملك هنري ابن الملك داود، قدم الولاء لستيفن، وأعطاه ستيفن بالاضافة لما تقدم بلدة هنتغدون.

وبعد عودة الملك ستيفن من الشمال، عقد بلاطه خلال عيد الفصح في لندن، بطريقة أروع مما عرف قط من قبل، ليس فقط بعدد الحضور بل بما جرى عرضه من روائع من ذهب وفضة وجواهر، وثياب ثمينة، وكل شيء كان فائقاً.

### سنة سبع وثلاثين ومائة وألف

في السنة الثانية من حكمه، أمضى الملك ستيفن عيد الميلاد في دنستييل Dunstable ، وفي الصوم الكبير أبحر إلى نورماندي، وعبر معه الاسكندر أسقف لنكولن وعدد كبير آخر من النبلاء، ونجح الملك هناك بفضل خبرته بالحرب في جميع ماقام به، وأحبط خطط أعدائه، وهدم قلاعهم وحصل على أعلى المفاسخ والأمجاد، وأقام سلماً مع الملك الفرنسي، الذي قدم ابنه يوستاس الولاء له من أجل نورماندي، التي هي اقطاع تابع للتاج الفرنسي.

وكان غيوفري كونت أنجو العدو اللدود للملك ستيفن، لأنه كان قد تزوج ماتيلدا ابنة الملك هنري، وهي التي كانت امبراطورة ألمانيا، وكانت

قد تلقت أيمان التبعية بالنسبة لمملكة انكلترا، وبناء عليه ادعى الزوج والزوجة بحقوقهما بالعرش الانكليزي، لكنه وقد رأى أنه في الوقت الحاضر لا يستطيع التقدم بنجاح ضد الملك ستيفن، بحكم امتلاكه لقوات لا تحصى مع كميات هائلة من المال وجددها في خزائن الملك المتوفى، ولهذا تصالح كونت أنجومع الملك ستيفن، وبناء عليه وبعدما حقق النجاحات عاد الملك إلى انكلترا منتصراً، وكانت عودته عشية عيد الميلاد.

وكانت الستتان الأوليتان من حكم الملك ستيفن سعيدتان، لأن السنة التالية التي أنا مقبل الآن للحديث عنها كانت عادية وموائمة، لكن الستتان الأخيرتان كانتا مدمرتان ويأستان.

### سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف

ذهب الملك ستيفن (١١)، في السنة الثالثة من حكمه، بنشاطه المعتاد، مسرعاً نحو بدفورد Bedford ، وحاصرها عشية يوم الميلاد، وشدد الحصار خلال مدة العيد كلها، مما أغضب الرب بقدر ما جعل ذلك الموسم ضئيلاً أو بلا قيمة.

وبعد استسلام بدفورد، قاد قواته داخل اسكوتلندا، ذلك أن الملك داود، قام نتيجة لليمين الذي أداه لصالح ماتيلدا ابنة الملك هنري، وتحت غطاء ديني، فجعل أتباعه يتعاملون بشكل وحشي، فقد اغتصبوا بشكل مكشوف النساء الحبالى، وبقروا بطونهن لاجراخ الأطفال الذين لم يلدوا بعد، ورموا بالأطفال وأرجحوهم على أسنة رماحهم، وذبحوا رجال الدين عند المذابح، وقطعوا رؤوس تماثيل الصليب، ووضعوهم على أجساد الذين ذبحوهم، وبالمقابل وضعوا رؤوس ضحاياهم فوق

التماثيل، وحيثما حل السكوتلنديون أو جاءوا كانت هناك المناظر نفسها من الرعب والوحشية: نساء يولولن، شيوخ يندبون وسط الذين يموتون من الآلام واليائسين من الحياة، ولهذا غزا الملك ستيفن اسكوتلندا وسلط السيف والنار على الأجزاء الجنوبية من ممتلكات الملك داود، الذي لم يتجرأ على التصدي له.

اتخذ الكاتب المجهول، لكن المعاصر الذي كتب أعمال ستيفن، موقفاً أقل حدة ونقداً تجاه السكوتلنديين.

كان ملك اسكوتلندا، الذي تحد بلاده انكلترا، حيث يفصل تهر بينها، عظيم المشاعر الانسانية، وقد ولد لأبوين متدينين، ولم يتعد عن فضائلها وتقواهما، وكان مع مجموعة من الرجال العظام، لابل في الحقيقة كان الأول بينهم، أدى يمين الولاء لماتيلدا، ابنة الملك هنري، في حضوره ولهذا غضب غضباً شديداً لأن ستيفن اغتصب تاج انكلترا، لكن بما أن ستيفن استقر بالملك بوساطة البارونات بدون حضوره وموافقته، فقد جلس بكل حكمة ينتظر النتيجة، ويراقب مجرى الأحداث.

وأخيراً استلم رسائل من ماتيلدا، تتشكى فيها بأنها حرمت من وصية أبيها، وسرق منها التاج الذي تمت ضمانته لها ولزوجها بأيمان مغلظة، فقد أزيحت الشريعة ورميت جانباً وديس على العدالة بالأقدام، وأيمان التبعية لها التي أقسمها البارونات الانكليز قد خرقت ولم يقم لها وزن، وباخلاص وأسف طلبت منه بحكم قرابته منها أن يعمل على ضمان حاجتها، وأيضاً بحكم كونه تابعاً شرعياً لها أن يقوم بمساعدتها في وقت ضيقها.

وشعر ملك اسكوتلندا بحزن عميق، وتعاطف غضبه من أجل المطلب الحق، وروابط الدم، وتقديراً ليمينه قرر القيام بغارة يخرق بها انكلترا،

اعتقاداً منه انه بقيامه بهذا يمكنه بمعونة الرب أن يرغم ستيفن على التخلي عن الحكم لصالح المالكة الشرعية للتاج، التاج الذي وضع له أنه تم الاستيلاء عليه بصورة غير عادلة، واعتنى ملك السكوتلنديين في بلاطه بالمنفيين الانكليز الذين حرضوه باستمرار لاتخاذ هذه الاجراءات، ولهذا قام الملك داود — لأن هذا كان اسمه — فنشر مرسوماً في جميع أرجاء اسكوتلندا يدعوه فيه شعبه إلى حمل السلاح، وتغيير مجرى حياته، ومن ثم المبادرة للاقلاع بهجوم عاصف ومدمر هائل ضد الشعب الانكليزي.

وتدعى اسكوتلندا أيضاً ألباني Albany ، وهي بلاد مغطاة بمروج واسعة، وفيها غابات مزدهرة مع المراعي التي تطعم قطعان كبيرة من الأبقار والثيران، وفيها موانئ آمنة، وهي محاطة بجزر خصبة، والسكان المحليون متوحشون، وعاداتهم غير نظيفة، لكنهم غير معاقين بالبرد الشديد، ولا يعانون من العوز الكبير، سرعتهم كبيرة على أقدامهم وأسلحتهم خفيفة، ويتخذ منهم جند شجعان ذوي فعالية، وهم بين أنفسهم لا يعرفون الخوف ولا يبالون بالموت، ووحشيتهم بين الغرباء عنيفة ويبيعون نفوسهم بأثمان عالية.

ونعود الآن إلى حكاية هنري أوف هنتغدون

ظهرت الخيانة الانكليزية وتجلت بشكل واضح بعد فصح ١١٣٨، فقد قام تالبوت Talbot، الذي كان واحداً من الثوار بالاستيلاء على إحدى القلاع في ويلز، وأعلن العصيان بها ضد الملك ستيفن، غير أنه حاصرها واستولى عليها، وتحصن الايرل روبرت أوف غلستر، وهو ابن طبيعي للملك هنري الأول في قلعة برستول المنيعة وفي قلعة ليدز، واستولى وليم فتر ألان Fitz Alan على قلعة شروبري، التي اقتحمها

الملك أخيراً، وشنق عدداً من الأسرى.

وفياً كان الملك مشغولاً على هذه الصورة في الجنوب، قاد داود صاحب اسكوتلندا ثانية جيشاً كبيراً إلى الشمال من انكلترا، وقد عارضه بشدة وقاومه نبلاء الشمال تحت قيادة ثيرستان Thurstan رئيس أساقفة يورك، ونصب العلم الملكي في نورثألرتون Northallerton ، وحيث أن رئيس الأساقفة منعه المرض من حضور المعركة، فقد فوض إلى رالف أسقف أوركني Orkney أن يشغل مكانه، ووقف رالف على ربوة صغيرة في وسط الجيش، ورفع من معنويات النبلاء الانكليز بخطاب ألقاه عليهم.

ثم صرخ الانكليز رادين عليه بصوت واحد رددت صداه الجبال والتلال قائلين «أمين، أمين»، وإثر هذا وفي الوقت نفسه ردد السكوتلنديون صيحات حربهم «ألبان، ألبان»، حتى وصلت إلى عنان السماء، ثم اختفت الأصوات وسط قعقعة السلاح.

وفي الحملة الأولى نال رجال لوثيان Lothian شرف توجيهه الضربة الأولى، فوجهوا نحو الفرسان الانكليز الدارعين زخات من النشاب، وذلك دون أذن من ملك السكوتلنديين، غير أنهم وجدوا الصفوف الانكليزية منيعة لا يمكن خرقها مثل جدار من الفولاذ، واختلط النبالة الانكليز بالفرسان وتوزعوا بينهم، وفيها هم كذلك أصابوا السكوتلنديين غير المسلحين برماياتهم المتوالية، ووقف الجيش الانكليزي بأجمعه مع النورمانديين متماسكاً حول العلم في كتلة مترابطة قوية.

ثم سقط مقدم رجال لوثيان نتيجة اصابة بنشابة، وأدى هذا إلى فرار جميع أتباعه، لأن الرب القادر كان غاضباً عليهم، وهكذا تحولت قوتهم وغدت أشبه بنسيج عنكبوت، وعندما رأت الكتلة الرئيسية من السكوتلنديين هذا، وكانت تقاتل في قطاع آخر بشجاعة، فقدت

إقدامها، وتراجعت هي أيضاً، وعندما رأت فرقة الملك داود هذا، بدأت أيضاً بالفرار، أولاً على شكل أفراد ثم بشكل جماعي، مع أن عساكرها كانوا نخبة اختارهم الملك من مختلف القبائل، واستمر الحال هكذا حتى وقف الملك لوحده ولم يبق معه أحد تقريباً، وبناء عليه أرغمه رفاقه على امتطاء ظهر جواده والنجاة بنفسه، لكن ابنه هنري الشجاع لم يبال بما كان يفعله بني قومه، وظل متمسكاً بالرغبة في متابعة القتال ونيل الفخار، فترك الذين يفرون وشأنهم، وقام بحملة شديدة على صفوف الأعداء، وتألقت القوات التي كانت تحت امرته من انكليز ونورمانديين ارتبطوا ببيت أبيه، واحتفظوا بخيولهم، لكن هذه الفرقة من الخيالة لم تستطع أن تزلزل الرجال الذين غطتهم سوابغهم ودروعهم وقاتلوا على أقدامهم متراصين، وهكذا أرغم هؤلاء على التراجع بخيول معقورة، ورماح محطمة، وذلك بعد حملة رائعة، لكن غير موفقة.

ويقال سقط على أرض المعركة أحد عشر ألفاً من السكوتلنديين، وذلك بالإضافة إلى الذين عثر عليهم في الأحرار وحقول القمح وقتلوا هناك، ونال جيشنا النصر بعد هدر قليل من الدماء، وكان قاداته هم:

وليم كونت أوميل Aumale ، ووليم بيفيريل peverel ، أوف نوتنغهام Nottingham ، وولتر اسبك Espec ، وغلبرت دي لاسي Lacy ، الذي كان أخوه الفارس الوحيد الذي قتل، وعندما نقلت أخبار المعركة إلى الملك ستيفن، قدم هو وجميع الذين كانوا معه الشكر إلى الرب القدير، وقد وقعت هذه المعركة في شهر اب (١٢).

وخلال حلول الأحاد الأربعة التي تقدمت على عيد الميلاد، عقد المندوب البابوي وهو أسقف أوستيا ostia مجمعاً دينياً في لندن، تمّ خلاله رسم ثيوبولد راعي دير بك Bec رئيساً لأساقفة كانتربري، وذلك بموافقة من الملك ستيفن.

## سنة تسع وثلاثين ومائة وألف

وفي السنة الرابعة من حكمه، وبعد مضي عيد الميلاد، حاصر الملك ستيفن قلعة ليدز واستولى عليها، وقصد بعد هذا اسكوتلندا، فدخلها، وبوساطة السيف والنار أرغم ملك السكوتلنديين على طلب الصلح، وجلب إلى انكلترا هنري ابن الملك داود، ثم حاصر ستيفن لودلو Ludlow ، التي كان هنري خطف إليها من على ظهر حصانه بوساطة كلاب حديدي، فكاد أن يقع أسيراً، لكنه أنقذ من أيدي الأعداء بشجاعة من قبل الملك ستيفن.

وترك الملك ستيفن لودلو Ludlow دون الاستيلاء عليها وذهب إلى أكسفورد حيث اقترف عملاً دنيئاً جداً، تخطى به كل ما تقدم، فبعدها استقبل بحفاوة وود روجر أسقف سالسبري مع ابن أخيه الاسكندر أسقف لنكولن Lincoln ، قام هذا الملك باعتقاله بكل عنف في قصره، مع أنهم لم يرفضوا شيئاً من مطالب العدالة، وطالبوا بكل اخلاص بذلك، وألقى الملك بالأسقف الاسكندر بالسجن، وأخذ معه أسقف سالسبري إلى دفزيس Devizes التي كانت قلعة هذا الأسقف، والتي كانت من أقوى القلاع في جميع أوروبا، وعذب هناك روجر باجاعته، وأهان ابنه الذي كان حاجب الملك ومستشاره بربط حبل حول عنقه وجره إلى قفص جعله زنزانه له، وحصل منه بهذه الطريقة على الموافقة على تسليم القلعة، ناسياً جميع الخدمات التي قدمها له الأسقف أكثر من سواه، ولاسيما الخدمات التي بذلها له في بداية حكمه، فعلى هذه الصورة جازى الأسقف على اخلاصه.

وبطريقة مشابهة استولى الملك على قلعة شيربورن Sherborne التي كانت أدنى قليلاً من قلعة دفزس، وبعدها حصل على أموال الأسقف، استخدم هذه الأموال في سبيل تأمين زواج لابنه يوستاس من كونستانس أخت لويس الملك الفرنسي، ثم أعاد الملك ستيفن معه إلى نيوارك Newark الاسكندر أسقف لنكولن الذي كان قد ألقاه من قبل في سجن في اكسفورد، وكان هذا الأسقف قد شيد في نيوارك قلعة حمراء كأنها وردة بطراز عمارتها وهندستها، وكان منظرها جذاباً وسط المروج، ويمر بقرها نهر ترنت Trent ، وما ان شاهد الملك هذه القلعة ووقع نظره عليها حتى فرض على الأسقف صوماً لم ترخص به الكنيسة، وأقسم أنه سيظل محروماً من الطعام حتي يستجيب إلى تسليمه القلعة، وقد واجه الأسقف بعض المصاعب في اقناع حامية قلعته، وبالدموع والرجاء الحار استجابوا إلى التنازل عن القلعة إلى الغرباء، وكان هناك قلعة أخرى من قلاعها اسمها سلي فورد Sleaford ، لم تكن أقل جمالاً من القلعة المتقدمة، وقد تم التخلي عنها وتسليمها بطريقة مشابهة.

ولم يمض وقت طويل على هذا حتى قام هنري أسقف ونشستر، وأخو الملك، ونائب البابا بعقد مجمع ديني في ونشستر، وقد شاركه ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري وجميع الأساقفة الحضور بالطلب من الملك، وهم جاثين على ركبهم في أن يقوم برد ممتلكات الأساقفة الذين ورد ذكرهم أعلاه، مع تفاهم ضمنى أنهم سوف يتغاضون عن الاهانات التي تعرضوا لها، ومهما يكن من أمر، لم يتحرك الملك ليتجاوب مع طلبات هذا المجمع المتميز، وأخذ برأي شريروا تبعه. فرفض الاستجابة لهذا المطلب.

وهياً هذا السبيل إلى الدمار النهائي لبيت ستيفن، ذلك أن الامبراطورة، ابنة الملك هنري المتوفى، والتي كانت قد تلقت عهد تبعية

الولاء من الانكليز، جاءت على الفور إلى انكلترا، وجرى استقبالها في قلعة آرونديل Arundel وحوصرت الامبراطورة هناك من قبل الملك، الذي إما أنه أصغى إلى مشورة غير مخلصه، أو أنه وجد أن القلعة قوية جداً وأنه لا يستطيع الاستيلاء عليها، لذلك أعطاها الأمان في أن تذهب إلى برستول.

وتوفي في تلك السنة نفسها روجر، الأسقف الذي تحدثت عنه قبل قليل، وذلك بعدما أنهكته المشاكل مع ثقل السنين، وقد يدهش القارىء تجاه هذا التبدل المفاجيء بالحظ بالنسبة له، لأنه منذ شبابه والسعادة ترافقه، إلى حد يمكن للمرء أن يقول فيه، بأنها نسيت أن تقلب اتجاهها نحوه، فهو لم يواجهه خلال حياته كلها أية حوادث معاكسة حتى تجمعت سحب التعاسة حوله، وتمكنت من قهره في آخر المطاف، لذا ينبغي على أي انسان ألا يعتمد على استمرار حسن الحظ، وألا يفترض أن السعادة دائمة، وألا يظن أن بإمكانه الاستقرار طويلاً فوق دولابها المتحرك.

### سنة أربعين ومائة وألف

وقام الملك ستيفن في السنة الخامسة من حكمه بطرد نيجل Nigel أسقف إيلاي Ely ، لأنه كان ابن أخ لأسقف سالسبري المتوفى، والذي كان الملك يبغضه إلى حد أن غضبه شمل جميع أقربائه.

ولم يعد هاماً المكان الذي أمضى فيه الملك عيد الميلاد والفصح، لأن هذا كله جعل البلاط رائعا، واختفت الشعارات الملكية التي ورثها من الخط الطويل لأسلافه، والخزانة التي تسلمها مليئة، باتت الآن فارغة، وانعدم الأمن في المملكة، وانتشرت أعمال القتل، والاحراق، والنهب والدماء خلال الديار، وارتفعت صرخات اليأس، والرعب، والأسى في

كل مكان.

### سنة إحدى وأربعين ومائة وألف

وفي السنة السادسة من حكمه، قام الملك ستيفن بعد عيد الميلاد بإلقاء الحصار على قلعة لنكولن، وكان المدافع عنها رانولف Rannulf إيرل تشستر، الذي استولى عليها بالخدعة، وبقي الملك هناك حتى الثاني من شباط، ثم اجتمع الايرل مع روبرت صاحب غلوستر، وكان ختن الايرل وابن الملك الملك هنري، وانضم إليهما عدد من النبلاء الأقوياء، وقرروا رفع الحصار، وعبر الايرل الجريء سبخة كانت صعبة جداً، وصف عساكره واستعد للاشتباك بالقتال في اليوم نفسه، وتشكل الصف الأول منه ومن رجاله، وكان قوام الصف الثاني الذين حرمهم الملك ستيفن من ميراثهم، وشكل روبرت ورجاله الصف الثالث، ووقف على الجناحين حشد من رجال ويلز الذين كانت شجاعتهم أعلى من تسليحهم.

وفي الوقت نفسه حضر الملك ستيفن وهو عظيم القلق، قداساً دينياً، وفي تلك الأثناء وبينما كان يضع الشمعة —وهي التقدمة الملكية المعتادة— في يدي الأسقف الاسكندر، انكسرت، وكانت هذه الحادثة علامة فال سيء بالنسبة للملك، وانقطعت آنذاك السلاسل الحاملة للصندوق الحاوي لجسد الرب، وذلك أثناء قيام الأسقف بالقداس، ووقع الصندوق على المذبح، وعدت هذه اشارة إلى أن ملك الملك سيلحقه الدمار، ومع ذلك انطلق بكل شجاعة، وصف قواته بعناية، ووقف شخصياً على قدميه، وترجل وقتها رجاله ورسوا صفوفهم من حوله، وصدرت الأوامر للأمراء بأن يشكلوا مع رجالهم صفين من

الخيالة، لكن قوات الخيالة كانت قليلة جداً، فقد جلب الأمراء المزيّفون المرائون قوى قليلة معهم، لكن قوات الملك كانت كبيرة جداً، وقد رافق بعضها الراية الملكية، وبما أن الملك ستيفن لم يمتلك صوتاً موافقاً، فقد طلب من بلدوين فتزغلبرت، وكان رجلاً نبيلاً وفارساً شجاعاً، أن يخاطب بالجيش، وقبل أن ينهي خطابه سمعت أصوات الأعداء، وصدحت الأبواق، وجعلت حوافر الخيول الأرض تهتز.

وبدأت المعركة، وانقض المحرومون من ميراثهم، والذين وقفوا في الساقة، على الفرقة الملكية التي كان فيها الايرل الآن كونت ميولان، وهيوغ ايرل ايست أنغليا، والايرل سيمون، والايرل وارين Warenne ومع تلقى هؤلاء للصدمة تفرقوا في رمشة عين، فقتل بعضهم، ووقع بعضهم بالأسر، وفرّ بعضهم الآخر.

وهاجمت الفرقة التي كانت تحت إمرة الكونت صاحب أوميل Au- male ووليم صاحب يبرس Ypres ، الولزيين على الجناحين، وأرغمتهم على الفرار، لكن مالبت هذه الفرقة أن هوجمت من قبل رجال ايرل تشستر، ومزقوا في لحظة مثل الآخرين، وهكذا فرّ جميع فرسان الملك وكذلك وليم صاحب يبرس، وكان رجلاً من فلاندرز، من أصل أرستقراطي وصاحب مكانة عالية، وبما أنه كان رجلاً خبيراً بالحرب، ورأى من غير الممكن له أن يساعد الملك، وفرّ عونه إلى وقت أفضل، وهكذا ترك الملك ستيفن واقفاً وحده على قدميه وسط أعدائه، وأحاط هؤلاء بالقوات الملكية وهاجموها من جميع الجهات، وكان الشرير يتطاير من السيوف لدى وقوعها على الخوذ، وكانت أصوات الأسى وصرخات الرعب يتردد صداها ويعود رجوعها من التلال ومن أسوار المدينة، وهاجمت الخيالة الجيش الملكي فقتلت بعضه، وداست بعضه الآخر، ووقع بالأسر أعداد كبيرة.

ولم تكن هناك استراحة أو وقت لتنفس الصعداء، إلا حيث كان الملك

نفسه، الذي كان قوياً جداً، وكان صامداً، لأن أعداءه كانوا يخافون من شدة ضرباته، وعندما رأى إيرل تشستر هذا حسد الملك على صموده، وهمل عليه حملة منكرة ومعه الدارعين من رجاله، ثم إن قوة الملك أشعت بالفعل وهو يقاتل ببلطته حيث قتل بعض مهاجميه ومزق صفوف آخرين، ثم ارتفع صوت نادى: «على الجميع التوجه ضده، إنه ضد كل واحد»، وأخيراً تحطمت بلطة الملك من الضربات المتوالية، ثم سحب ستيفن سيفه، وكان سيفاً جديراً بذراع ملكي، وفعل أفاعيل مذهشة حتى انكسر، وعندما رأى وليم أوف كاهاغنس Cahagnes هذا، وكان فارساً شجاعاً، همل على الملك وأمسكه بوساطة الخوذة، وصرخ: «إليّ كل واحد، إليّ هنا، لقد أمسكت بالملك»، واندفع الجميع نحوه، ووقع الملك بالأسر، كما جرى أسربلدوين الذي تولى مخاطبة الجنود، وكان قد أصيب بجراح كبيرة، وقد نال من مقاومته مجداً سرمدياً، ووقع رتشارد فتز أورش Fitz Urse أيضاً بالأسر، ونال هو فخاراً عظيماً أثناء القتال.

وتابع جيش الملك القتال حتى وقع بالأسر، وجرى تطويق هذا الجيش، وهكذا لم يستطع رجاله الفرار، فكان إما أن قتلوا أو أسروا، وأبيحت المدينة للناهبين، واقتيد الملك بشكل تعيس إليها.

وهكذا جرى حكم الرب على الملك ستيفن، وقد اقتيد أمام الامبراطورة ماتيلدا، وسجن في قلعة برستول، وعدّ الانكليز الامبراطورة سيدتهم باستثناء كنت، حيث قاتلت الملكة ضدها ومعها وليم أوف بيرس، وذلك بكل ما أوتيا من قوة، وقد اعترف بها في البداية أسقف ونشستر، ثم النائب البابوي، ثم مالبت أن اعترف بها اللندنيون، غير أنها امتلأت بغرور عظيم لأن أتباعها نجحوا نجاحاً عظيماً في حرب لم تكن نتائجه مؤكدة، ولهذا السبب جعلت كل واحد يتعد عنها، وهكذا طردت من لندن إما بسبب خياني أو لحكمة ربانية (لأن كل ما يفعله

الناس هو بإرادة الرب)، وبناء عليه قامت وهي تحمل حقد المرأة، فوضعت الملك ستيفن - وهو الملك المرسوم بإرادة الرب - بالأغلال.

وقامت ماتيلدا بعد وقت قصير ومعها خالها ملك السكوتلنديين وأخيها روبرت أوف غلوستر بحشد قواتها، وحاصرت قلعة أسقف ونشستر، وبعث الأسقف خلف الملكة ووليم أوف يبرس مع غالية بارونات انكلترا، وحشد الطرفان جيشان كبيران، وكان هناك قتال في كل يوم، لكن لم تحدث معارك عظيمة واقتصر الأمر على المناوشات، وسجلت خلال هذه الاشتباكات أعمال شجاعة، ومع أنهم كانوا أشبه بالعميان في الحرب، كان من الممكن رؤية شجاعة كل واحد مع تقدير أعماله المجيدة، وهكذا كانت هذه الفرصة وقتاً ممتعاً لكل إنسان يحكم انه كان من الممكن رؤية أفعالهم الرائعة.

وبعد انتظار طويل وصل جيش اللندنيين، ولأنه زاد من تعداد أعداء الامبراطورة، قضي عليها بالفرار، ووقع بالأسر عدد كبير أثناء الفرار، كان بينهم أخوها روبرت، الذي كان الملك مسجوناً في قلعته، والذي مكن أسره الملك من التبادل به، وهكذا حدث أن الملك الذي وقع بالأسر بحكم رباني، نال حرته برحمة من الرب، وقد استقبله بارونات انكلترا بفرح عظيم.

### سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف

وفي السنة السابعة من حكمه، حاصر الملك الامبراطورة ماتيلدا في اكسفورد من عيد القديس ميكائيل [٢٩-أيلول] حتى حلول الميلاد، وقبيل حلول الميلاد بوقت وجيز هربت الامبراطورة عبر نهر التيميز المتجمد، وهي متدثرة بثياب بيضاء، فخدعت المحاضرين بظهورها

وكانها شبج من الثلج، ولقد فرت إلى قلعة وولنغ فورد Wallingford واستسلمت أكسفورد إلى الملك.

### سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الثامنة من حكمه، حضر الملك ستيفن المجمع الديني الذي عقد في لندن في منتصف الصيام وقد عقده نائب البابا، الأسقف هنري أوف ونشستر من أجل الأوضاع المتردية جداً التي وضع فيها رجال الدين، حيث أن الاحترام لم يقدم لهم ولا إلى كنيسة الرب المقدسة من قبل الغزاة، وأودع رجال الدين السجن، واتخذوا رهائن مثلهم في ذلك مثل المدنيين، وبناء عليه قرر المجمع أن كل من يتعرض بالأذى إلى رجال الدين يجرم ويطرد من الكنيسة ولا يمكن تحليله إلا بوساطة البابا شخصياً، لكن هذا القرار لم يخفف الأذى عنهم بالفعل إلا قليلاً جداً.

واعقل الملك في السنة نفسها الايرل غيوفري دي ماندفيل Mandeville ، في البلاط الملكي في سانت ألبان، بتهمة استحقاقها الايرل الاعتقال، وكانت للمصلحة أكثر منها تطبيقاً للعدالة العامة، ولو لم يقدم الملك على هذه الخطوة لكان طرد من عرشه بوساطة مؤامرات الايرل ولكي يكسب الايرل غيوفري حريته تنازل عن قلعة لندن، وعن قلعة والدن Walden وقلعة بليشي Pleshey وهكذا حرم من جميع ممتلكاته، ولذلك استولى على دير رامي Ramsey ، وطرد الرهبان منه، وحصنه بمجموعة من اللصوص وبذلك حوّل بيت الرب إلى وكر للصوص، ولقد كان في حقيقة الأمر رجالاً عظيم الشجاعة، لكنه كان متصلباً وعنيداً في أعماله اللاربابانية، متيقظاً تجاه الأعمال الدنيوية، ومهماً للأعمال الروحانية.

## سنة أربع وأربعين ومائة وألف

ألقى الملك ستيفن الحصار في السنة التاسعة من حكمه على قلعة لنكولن، وبينما كان يعد أعمال الحصار من أجل الهجوم على القلعة، التي استولى عنوة عليها رانولف إيرل تشستر، اختنق حوالي الثمانين من رجاله في الأنفاق، لذلك رفع الملك الحصار وتخلّى عنه في حالة من الفوضى.

وسبب في السنة نفسها الايرل غيوفري دي ماندفيل الكثير من المتاعب للملك، ويميز نفسه أكثر من الآخرين، وفي شهر آب أظهرت الحكمة الربانية عدالتها بشكل رائع، حيث واجه اثنان من النبلاء الذين حوّلوا الدير إلى مواقع حصينة، وطردهم الرهبان، عقوبة مماثلة لأن ذنبهما كان نفسه، وكان روبرت مارميون Marmion أولهما، فقد كان قد اقترب هذا الجرم في كنيسة كوفن تري Coventry كما أن غيوفري دي ماندفيل كان قد اقترب الشيء نفسه — كما قلت — في دير رامسي، وفيما كان روبرت مارميون متقدماً ضد أعدائه، قتل تحت أسوار الدير، وكان وحده الذي سقط، مع أنه كان محاطاً بقواته، وقد مات وهو محروم كنسياً، فخضع إلى الموت الأبدي، وبطريقة مماثلة جرى تمييز الايرل غيوفري بين أتباعه، وأطلق عليه سهم من قبل أحد الجنود الرجالة العاديين، ومع أنه جرح جراحة خفيفة فقد توفي خلال عدة أيام وهو محروم كنسياً، وكان هذا هو الحكم العادل للرب، دائم الذكرى خلال الأجيال، وعندما كان هذا الدير محولاً إلى حصن رشح الدم من جدران الكنيسة والأماكن المجاورة، شاهداً بذلك على الغضب الرباني، ومبشراً بدمار غير الربانيين، وقد شوهد هذا من قبل الكثيرين، وقد شاهدت ذلك أنا نفسي بعيني.

### سنة خمس وأربعين ومائة وألف

وفي السنة العاشرة من حكم الملك ستيفن، كان هيوغ بيغود Bigod أول من قام بالتحركات، وفي الصيف شرع الايرل روبرت مع كتلة أعداء الملك يعملون لبناء قلعة في فارنغدون Faringdon ، ولم يضع الملك الوقت، حيث جمع الجيوش وزحف إلى هناك على رأس حشد كبير ومرعب من اللندنيين، وبعد هجمات يومية على القلعة، وفيما كان الايرل روبرت مع حلفائه ينتظرون وصول قوات جديدة لم تكن بعيدة عن جيش الملك، جرى الاستيلاء على القلعة بعد سقوط كثير من القتلى.

### سنة ست وأربعين ومائة وألف

وحشد الملك ستيفن في السنة الحادية عشرة من حكمه جيشاً عظيماً، وبنى وسائل حصار لا تقهر ضد قلعة والنغفورد، وكان رانولف ايرل تشستر، الذي انضم الآن إلى الجانب الملكي، حاضراً هناك مع قوة كبيرة، وحدث بعد هذا أنه عندما كان الايرل حاضراً بأمان في بلاط الملك في نورثامبتون، ودون أن يخشى من أي سوء، اعتقل، وأودع في السجن حتى تنازل عن قلعة لنكولن الحصينة، الذي كان قد استولى عليها بطرق بارعة، كما تنازل عن القلاع الأخرى التي عادت بملكيتها له، وبعد هذا أطلق سراح هذا الايرل وسمح له بالذهاب إلى حيث أراد.

## سنة سبع وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الثانية عشرة من حكمه، لبس الملك ستيفن التاج أثناء عيد الميلاد في لنكولن، الأمر الذي لم يقدم عليه ملك قبله لأسباب غيبية، وأظهر هذا مدى تصميمه، وكيف أنه أعار قليلاً من الأهمية لمثل هذه الغيبيات، وبعد مغادرة الملك جاء إيرل تشستر إلى لنكولن مع قوة مسلحة لمهاجمة القلعة، لكن قائد قواته، وكان رجلاً عظيماً الشجاعة والخط، لاقى مصرعه عند مدخل الباب الشمالي للبلدة، ثم تبع ذلك أن فقد الأيرل نفسه عدداً كبيراً من أتباعه، ولذلك أرغم على التراجع، وبناء عليه قدم سكان البلدة أثناء احتفالهم بنجاحهم في الدفاع شكراً خاصاً إلى العذراء المباركة حاميتهم والمدافعة عنهم.

وقام في أحد العنصرة لويس ملك فرنسا، وتيري كونت فلاندرز، وكونت سانت جايل (صنجيل) مع حشد كبير من كل جزء من فرنسا، وعدد عظيم من الإنكليز، بحمل شارة الصليب، والسفر نحو القدس، عازمين على طرد الكفار الذين استولوا على مدينة الرها (١٣).

## سنة ثمان وأربعين ومائة وألف

محدث في هذه السنة جيوش امبراطور ألمانيا وملك فرنسا، مع أنها قيادت من قبل قادة لامعين، وبدأت زحفها بفخار وثقة، لكن الرب ازدراهم، وتضاعفت دعارتهم وفجورهم حتى عليين، ولأنهم تخلوا عن أنفسهم بشكل مكشوف لصالح الزنا والاتصالات الجنسية البغيضة إلى الرب، وإلى اللصوصية وكل نوع من أنواع الآثام، وعانوا في البداية من

المجاعة بسبب الارشاد الفاسد لامبراطور القسطنطينية، وتعرضوا بعد هذا للدمار بسيوف الأعداء، والتجأ الملك لويس والامبراطور إلى أنطاكية، ورغبوا بعد هذا وهم في القدس مع بقايا أتباعهم بالقيام بعمل مفيد، وأراد ملك فرنسا، في أن يفعل شيئاً ما يرد إليه احترامه، فألقى الحصار على دمشق وذلك بمساعدة من فرسان داوية القدس مع قوة حشدت من جميع الأرجاء، لكن كان يعوزه رضا الرب، ولهذا لم ينل النجاح، فعاد إلى فرنسا.

### سنة تسع وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الرابعة عشرة من حكم الملك ستيفن رسم داود ملك السكوتلنديين هنري ابن بنت أخته فارساً، واجتمعت بهذه المناسبة قوة كبيرة، وامتلك داود حاشية واسعة، وكان لدى ابن أخته أتباعه من نبلاء غربي انكلترا، وشعر الملك ستيفن بالخوف، وخشي من أن يأخذوا طريقهم إلى مهاجمة يورك، ولهذا تمركز شخصياً في تلك المدينة ومعه جيش كبير، وبقي هناك جميع أيام شهر آب، وقام في تلك الأثناء يوستاس بن ستيفن، الذي رسم أيضاً فارساً في العام نفسه، بغزو بلدان البارونات الذين كانوا حضوراً مع هنري ابن الامبراطورة، وحيث لم يجد من يعترض سبيله عاث في البلاد بالسيف والنار، غير أن ملكي انكلترا و اسكوتلندا، وكان أولهما في يورك وثانيهما في كارل آيل، خشيا من بعضهما بعضاً، فتجنبوا المواجهة واللقاء، وهكذا انفصلا بسلام، وعاد كل منهما إلى بلده.

### سنة خمسين ومائة وألف

وفي السنة الخامسة عشرة من حكمه، هاجم الملك ستيفن مدينة وورستر الجميلة، وبعدها استولى عليها جعلها طعمة للنيران، غير أنه لم يستطع الاستيلاء على القلعة التي كانت داخل المدينة، وكانت ملكيتها عائدة إلى وولران Waleran كونت ميولان Meulan ، وكان الملك ستيفن قد منحه إياها، وكانت هذه المنحة لغير صالحه، وبعدها أكمل الجيش الملكي نهب المدينة، عاث فساداً بالمناطق العائدة للأمرء المعادين، وحيث لم يقاومهم أحد، حملوا كميات هائلة من الغنائم والأسلاب.

### سنة إحدى وخمسين ومائة وألف

وتوفي في هذه السنة غيوفري الجميل، كونت أنجو، صهر الملك هنري الأول، وابن فولك ملك القدس، وهو نفسه كان رجلاً عالي المكانة.

ونالت وفاة غيوفري عناية أكثر اشراقاً من قبل جون مارموتير

**Marmoutier**

وحدث أنه عندما كان في الحادية والأربعين من عمره، وفي اليوم السابع من أيلول لسنة إحدى وخمسين ومائة وألف، واجه الدوق المنتصر لكل من نورماندي، ولشعب أنجو، وتورين، ومين، وهو عائد من اجتماع ملكي، مرضاً شديداً، وأصيب بالحمى في شاتودولور، وسقط على فراشه، ثم نظر نحو مستقبل بلاده وشعبه بروح تتطلع إلى ماسيكون، فحظر على

ابنه هنري أن يدخل عادات نورماندي أو انكلترا إلى بلاده، أو أن يفعل العكس، حسبما يمكن أن يحدث تبعاً لتعاقب تبدلات الحظ.

ثم بعدما قام بإعطاء بعض المنح، والأعطيات والحسنات، ظهرت علامات موت هذا الأمير العظيم من خلال أحد المذنبات، فرد جسده روحه ورفعها من الأرض إلى السماء، فهل كان عجيباً لو أن الموت الذي يعارض الطبيعة ويجردها صارع من أجل غيوفري منذ شبابه، حيث أنه كما يقول شيشرون:

«غالباً ما يبدو موت الشباب مثل إطفاء نار متقدة عظيمة بكثير من الماء، ومثل تفاحة غير ناضجة قطعت قسراً من الشجرة، ومع هذا إنها تسقط وكأنها ناضجة وجاهزة، وهكذا تنتزع القوة الحياة من الشباب، وبأخذها النضج من المسنين».

ودفن غيوفري في الكنيسة العظيمة القداسة المكرسة للقديس يولييان في لامانس، في ضريح عظيم جداً، بناه بشكل لائق الأسقف التقي وليم أوف بيوس فيم، وجرى صنع تابوت يشبه الكونت المحترم هناك، وقد تم ترصيعه بشكل مناسب بالذهب والأحجار الكريمة، وجاء هذا مذكراً بالموت للمتعجرف وبالنعمة للمتواضع، وجرى تعيين قسيس من قبل الأسقف، ل يبقى دوماً إلى جانب مذبح الصلب حيث مدد جسد الرجل المتوفى، وفرض لهذا القسيس عطاء دائم، وكان عليه أن يقدم كل يوم أضحية إلى الرب من أجل الكونت، حتى يتفضل الرب المقدس والرحيم فينزل رحمة يزيل بها تعاسة الكونت، ذلك أنه الرب الذي يعيش أبداً ويحكم دوماً.

قام هنري أوف هنتنغدون بعقلانية بتمجيد اتحاد ستيفن هنري أوف أنجو ودوق نورماندي خليفة له وذلك على الرغم من عدم محبته له — ستيفن — وميله إليه.

### سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف

ترك غيوفري لابنه هنري أوف أنجو ونورماندي ادعاء الحق بوراثة عرش انكلترا، الأمر الذي لم يفلح به شخصياً، وحدث الآن أن انفصل لويس السابع ملك فرنسا عن زوجته، ابنة كونت بواتو على أساس القرابة المحرمة، وإثر هذا تزوجها الدوق الجديد هنري، ومن خلالها استولى على بلاد بواتو، وزاد من مكانته وعلوه كثيراً (١٤)، وكان هذا الزواج السبب في اثاره كراهية عظيمة وخلاف بين ملك فرنسا والدوق.

وقام الآن يوستاس ابن الملك ستيفن مع ملك فرنسا بحملات على نورماندي، وقاومها الدوق بكل شجاعة وردهما مع الجيش الفرنسي، ثم حشد الملك لويس جميع خصومه، وهاجم قلعة منيعة الجانب، كانت لاترام وكان اسمها نوف مارشي Neufmarche واستولى عليها، وأعطاهما إلى يوستاس ابن ملك انكلترا، الذي زوجه من ابنته.

واقترح الملك ستيفن في السنة السابعة عشرة من حكمه تتويج ابنه يوستاس، وطلب من رئيس الأساقفة والأساقفة الآخرين الذين جمعهم القيام برسم — يوستاس — ومباركته، فقبل طلبه بالرفض، لأن البابا حظر برسائله رئيس الأساقفة ومنعه من تتويج ابن الملك لأن الملك ستيفن كان بالنسبة له قد استولى على العرش بشكل غير شرعي، وانزعج كل من الأب والابن من هذا، وغضباً غضباً عظيماً، فأمرًا بسجن رجال الكنيسة في أحد البيوت وحاولا بالتهديد ارغامهم على أن يفعلوا ماطلباه منهم، وقد خاف هؤلاء وارتعبوا لأن الملك ستيفن لم يجب رجال الدين مطلقاً، وسلف له أن تولى سجن اثنين من الأساقفة، ومع هذا صمدوا على الرغم من أنهم خافوا على رؤوسهم، وبعد طويل وقت نجوا دونها

ايذاء، مع أنهم جردوا من مقتنياتهم، التي أعادها الملك إليهم فيما بعد، عندما تاب.

وحاصر الملك في السنة نفسها قلعة نيوبيري Newbury ، التي لم تكن بعيدة عن ونشستر، واستولى عليها، ومن هناك تولى حصار وولنغفورد، وبنى قلعة حصار على مدخل الجسر، فحال بذلك دون الوصول إلى المحاصرين ودون إيصال المؤن إليهم، وعندما ضغط على هؤلاء بشدة، طلبوا من مولاهم، دوق نورماندي، إما أن يرسل المساعدات إليهم، أو منحهم الأذن بتسليم القلعة إلى الملك.

### سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف

وفي السنة الثامنة عشرة من حكم الملك ستيفن، أرغمت الضرورة هنري صاحب أنجو ودوق نورماندي على القيام بزيارة غير متوقعة إلى انكلترا، وبوصوله بدت هذه البلاد التعيسة، والتي عانت من قبل من العيث والفساد، وكأنها تكسب حياة جديدة.

وعندما وطأ الدوق العظيم شواطئ انكلترا، امتلأت الأرض بالأخبار، مثل حقل قصب حركته الرياح، وانتشرت الأخبار بسرعة، وكما هي العادة جلبت الفرح والسعادة إلى بعض الناس والخوف والأسف إلى آخرين، لكن الذين اعتراهم السرور لدى سماعهم خبر وصوله، انزعجوا قليلاً لدى معرفتهم أنه جلب معه عدداً قليلاً من الرجال، وفي الوقت نفسه كان انزعاج أعدائه من أخبار وصوله ضعيفاً أيضاً، ورأى بعضهم أن عبوره للبحر الهائج في وسط الشتاء عمل شجاع، ووجد بعضهم أن ذلك كان حماقة، ولكن الشباب الشجاع حشد إليه جميع مؤيديه ومزجهم: هؤلاء الذين جلبهم مع الذين وجدهم، وبما أنه كان يكره

التأخير فوق كل شيء، ألقى الحصار على قلعة مالزبري Malmesbury.

وبما أن فضائل هذا الرجل كانت كثيرة وعظيمة، فإنني سأتولى معالجتها بسرعة حتى لا تطول حكاية أعماله وتأخذ حيزاً كبيراً، وحوصرت القلعة (لأنه كان رجلاً لا يجب تأجيل الأعمال) وهوجمت، ومالبت أن استولى عليها، وعندما سقطت البلدة، قاوم الحصن الكبير، لصالح الملك، وتولى الدفاع فيه جوردان، وبات من الممكن السيطرة عليه بوساطة التجويع فقط، وخرج جوردان وذهب مسرعاً نحو الملك ستيفن ليخبره بما حدث، ولقد انزعج الملك لدى سماعه هذه الأخبار السيئة، واربذ وجهه وعلاه الحزن بدلاً من مظهر الفخار والعظمة، وبادر بنشاط كبير فجمع قواته، وعسكر على مسافة لم تكن بعيدة عن مالزبري.

واستعرض في اليوم التالي جيشه، الذي حوى عدداً كبيراً من الفرسان المتميزين الرائعين، وكان جيشاً لجبا فيه كثير من البارونات، وكانت راياتهم تلمع بالذهب، وكانت جميلة ومرعبة بالفعل، لكن الرب الذي عنده وحده ومعه الأمان والسلامة، لم يكن معهم، لأن بوابات الفيضان من السماء انفتحت، وجاء برد شديد وريح صرصر، وانهمرت الأمطار في وجوههم، حتى بدا كأن الرب نفسه كان يقاتل لصالح الدوق، غير أن الجيش زحف بانتظام، وكأنه يقاتل قدرات الرب وطاقاته، ولهذا عانى كثيراً.

واعتمد جيش الدوق الشاب على الشجاعة أكثر من اعتماده على الأعداد، خاصة وأن عدالة القضية التي كانوا يقاتلون من أجلها قد ضمنت لهم أنهم مدعومين بنعمة الرب، وقد اصطفوا ليس بعيداً عن أسوار بلدة مالزبري، على طرف نهر صغير، أعطته الأمطار الغزيرة والثلوج قوة أصبح بها مخيفاً إلى حد أنه ما إن يصبح الإنسان هناك حتى يعجز عن الخروج.

وكان الشاب النبيل على رأس جيشه، وكان جماله الجسدي أخاذ للنفس، وقد تميز بسلاح جدير به، وكان مناسباً له إلى درجة يمكن القول فيها إن سلاحه لم يمنحه الشهرة بل هو منح السلاح شهرته، وجعل الكونت مع رجاله السبخة وراء ظهورهم، وكانت هذه السبخة في وجه جيش الملك، ولذلك كانوا لا يستطيعون إلا بصعوبة حمل أسلحتهم فوق رماحهم المبللة.

وبما أن الرب عزم على أن ينال طفله البلاد من دون سفك للدماء، وألا يتمكن أياً من الفريقين من عبور النهر، ولأن الملك بات غير قادر على تحمل المطر المنهمر والفيضان الناتج عنه، عاد أدراجه نحو لندن، وبذلك باتت هزيمته كاملة، ولذلك استسلمت القلعة المحاصرة إلى الدوق، الذي بادر مسروراً وبكل سرعة نحو انجاز ما توجب عليه وجاء من أجله، أي التفريج عن قلعة والنغفورد التي كانت على حافة المجاعة.

وقد حشد كتلة كبيرة من العساكر ليحمل المؤن إلى الحامية المحاصرة، وسهل الرب نواياه بشكل كبير، حيث حمل هذه المؤن ووصل بها دون أن يلقي معارضة، مع أنه كان هناك الكثير من القلاع في تلك المنطقة كانت في أيدي القوات الملكية، فمن خلال عون الرب وارا دته لم يستطيعوا منعه من الذهاب والإياب، وبعد مضي وقت قصير حشد الدوق المقدم جميع الفرسان الذين وقفوا إلى جانبه وشرع في حصار قلعة كرومارش Crowmarsh ، وقد بدأ هذه المهمة المتعبة والصعبة بحفر خندق حول كل من قلعة الملك وجيشه الخاص، وبذلك بات طريقه الوحيد للخروج يمر عبر قلعة والنغفورد، بينما لم يبق للمحاصرين طريق للخروج.

وعندما سمع الملك بهذا جمع جميع القوات التي توفرت له من المناطق الخاضعة له، وانحدر غاضباً نحو الدوق، الذي لم يكن خائفاً أبداً، مع أن قواته كانت أقل من قوات الملك، وقد أمر على الفور أن يطم الخندق الذي أمر بحفره لحماية جيشه، ورفع الحصار، وزحف بشكل رائع

لمواجهة الملك، وعندما رأى الجيش الملكي المشهد غير المتوقع، وهو جيش عدوه، وقد اصطف للقتال واقفاً أمامه، استولى عليه الرعب فجأة، ولكن الملك لم يكن خائفاً أبداً، وأمر رجاله بالزحف إلى خارج المعسكر على شكل صفوف قتالية، لكن البارونات، أولئك الخونة لانكلترا، رفضوا هذا وعارضوه، ودعوا إلى التوصل إلى مصالحة، ومع أنهم لم يحبوا شيئاً أكثر من حبهم للتمزق، كانوا غير راغبين في انشباب القتال وحدوث معركة، لأنهم لم يرغبوا في أن يربح أيّاً من الطرفين، لأنه إذا ما انهزم أحد الطرفين سيكون من السهل وقوعهم تحت سيطرة الطرف الآخر، لكن إذا ظل كل طرف يحمي الآخر، فإنه من غير الممكن ممارسة السلطة الملكية عليهم.

ولم يرغب الملك ولا الدوق في أن يرغبوا على إقامة هدنة، وقد أدرك كل منهما خيانة مسانديه، لكن كما هي العادة، كان الرب واقفاً إلى جانب الدوق، غير أنهم وافقوا على أنه ينبغي هدم القلعة الملكية التي حاصرها الدوق، وعقد الملك والدوق مؤتمراً منفرداً، عبر واحد من الأنهار الصغيرة، وتباحثا فيما بينهما حول السلام، واشتكى كل واحد منهما إلى الآخر من خيانة نبلائه، وهنا بدأت معاهدة السلام، ولكنها لم تكتمل حتى مناسبة أخرى.

ولم ينته صراعهما عندما عاد كل واحد منهما إلى مقره، لكن الضوء بدأ يبرز حول حظ الدوق العظيم، حيث أن اثنين من أكبر أعدائه وأعظمهم قوة، وأعني بهما: يوستاس ابن الملك، وسيمون إيرل نورثامبتون تمزقا وغابا بحكمة من الرب، واختفيا في الوقت نفسه، ونتيجة لهذا فقد جميع خصومه بشكل مفاجيء الأمل والشجاعة.

لقد ماتا كلاهما بالمرض نفسه في أسبوع واحد نفسه، ودفن الايرل سيمون، الذي فعل كل شيء غير شرعي أو خلقي، في نورثامبتون، ودفن ابن الملك في دير أسسته أمه في فيفرشام Faversham ، وكان

فارساً مجرباً، لكنه كان رجلاً غير رباتي عنيف جداً مع قادة الكنيسة، وكان مضطهدهم الثابت المصمم، وبإزالة الرب لأعظم أعداء محبوه هنري، مهد له بلطف السبيل إلى حكمه السلمي.

وتناول الحصار الثالث قلعة ستام فورد، وسقطت البلدة دونما تأخير، لكن حامية القلعة راسلت الملك طالبة المساعدة، وكان الملك يحاصر ابسوتش Ipswich ، التي كان يدافع عنها، ويقف ضده فيها هيو بيغود، وبما أن الملك لم يكن يرغب في رفع هذا الحصار، وبالتالي لا يمكنه الذهاب لنجدة تلك الحامية، فقد استسلمت القلعة إلى الأمير هنري، وكذلك استسلمت القلعة التي كان يحاصرها الملك، وترك الدوق النورماندي ستام فورد وذهب إلى نوتنغهام، وايتولى على البلدة على الفور، وقد أحرقت هذه البلدة إثر هذا من قبل حامية القلعة، ولحزنه على ما حدث أخذ الدوق جيشه إلى مكان آخر.

وكان في الوقت نفسه رئيس الأساقفة ثيوبولد يبذل غاية جهده في سبيل إعداد اتفاق سلام، حيث ناقش هذا الأمر مراراً مع الملك، وعالجه مع الدوق عن طريق المبعوثين.

ورأى هنري أوف بليوس، رئيس أساقفة ونشستر، وهو الذي خبط المملكة بإعطاء أخيه ستيفن التاج، أن كل شيء قد دُمر بوساطة النار والقتل، وبعدهما رأى هذا أسف لما حدث، وسعى نحو وضع نهاية لهذه الشرور بتمكين الأميرين من الاتفاق.

ووضعت حكمة الرب، التي خلقت كلاً من الخير والشر، نهاية لآلام انكلترا، وحققت الوصول إلى محصلة لما بدأ بجعل السلام مؤكداً على الطرفين، وأن ينتشر ذلك باخلاص.

ولكم كان السرور عظيماً، والبهجة كبيرة، أيها اليوم المبارك، الذي استقبل فيك الملك نفسه الأمير الشاب في ونشستر، في استعراض رائع

للأساقفة والنبلاء خلال أصوات تحيات الجماهير.

واستقبله الملك وكأنه ابنه المتبنى، واعترف به وريثاً له، ومن هناك أخذ الملك الدوق إلى لندن، حيث جرى استقباله بفرح عظيم من قبل الجماهير، وبمواكب رائعة لاثقة برجل عظيم مثله، وهكذا بفضل من رحمة الرب بزغ فجر السلام على مملكة انكلترا المدمرة، ووضع نهاية لليلها المضطرب.

وبعدما انتهى هذا افتراق الملك ستيفن عن ابنه الجديد بسرور ومحبة على أن يلتقيا ثانية في أقرب وقت، لأن السلام كان قد تأكد قبل عيد الميلاد.

### سنة أربع وخمسين ومائة وألف

والتقيا ثانية في الثالث عشر من كانون الثاني في أكسفورد، وذلك بعد مضي سنة أمضاها الدوق في الاستيلاء على انكلترا، أو بالحري في إعادة توحيدها، وقدم هناك جميع عظماء انكلترا — بناء على طلب من الملك — الولاء مع يمين التبعية إلى مولاهم الدوق، ولم يستثنوا سوى التمجيد والاحلاص اللذين هما من حقوق الملك طوال حياته، وتركوا جميعاً هذا الاجتماع الرائع وقد امتلأوا بالغبطة، وكانوا مسرورين بسبب السلام الجديد.

ولم يمض وقت طويل حتى التقيا ثانية في دنستيل Dunstable ، حيث ظهرت بعض الغيوم المكدرة في الأفق، ولم يكن الدوق راضياً تجاه القلاع التي بنيت في كل مكان لأسباب شريرة بعد وفاة الملك هنري

الأول، والتي لم تهدم حسبما تم الاتفاق عليه في السلام الذي عقد أخيراً بينه شخصياً وبين الملك ستيفن، وكان عدد كبير منها قد هدم، باستثناء بعضها من خلال الملك ستيفن، فهو قد وفرها لبعض رجاله إما بنية سيئة أو عطفاً عليهم، وبدا هذا التصرف وكأنه يلغم المعاهدة، وتشكى الدوق حول هذا الأمر إلى الملك، لكنه دافع، فتغاضى مكرهاً عن هذه القضية، وتخلّى عنها لوالده الجديد، ذلك أنه خشي أن تفسد اتفاقهما، وقد افترقا متصادقين.

وبعد هذا بوقت قصير، عاد الدوق بإذن من الملك، منتصراً إلى نورماندي، فهذا ما كان هنري، أكثر الشباب شهرة، قد فعله في زيارته الثانية إلى انكلترا.

هذا وآمل ألا يصدر حكم ضدي لإقدامي على رواية أخبار العديد من أعماله الرائعة بشكل موجز ايجازاً شديداً، حيث يتوجب عليّ رواية أخبار العديد من الملوك مع أخبار أفعالهم عبر عدد كبير من القرون، ولاشك أن هذا عمل متعب سوف يحتاج إلى عدة مجلدات، وكانت فكرتي هي أن أقوم باختصار التاريخ في كتاب واحد، على أن لا أتجاهل تماماً ما سيكون في المستقبل.

ونعود الآن إلى العمل، فعندما عاد الدوق إلى فرنسا، استقبل استقبالاً كله سرور وتمجيد من قبل أمه ماتيلدا، مع اخوانه وجميع شعب نورماندي، وأنجو، وفين وبواتو، وكان الملك ستيفن الآن يحكم بسلام وذلك للمرة الأولى، وبفضل ابنه المتبنى نال التشریف اللائق بملك، لكن كم هم حقى الناس الفانون، ولكم هي خطاياهم التي لاتنتهي! فقد حاول بعض الناس «الذين أسناهم حراب ونشاب، وألستهم سيوف حادة» قدر استطاعتهم أن يروا عدم الوفاق بين الملك والدوق الغائب، ولم يكن باستطاعة الملك، أو لم يرغب في مقاومة ضغوطهم، وبعد وقت قصير اعتقد بعضهم انه توقف عن المقاومة، وصحيح انه

تظاهر بعدم الرضا، لقد كان بالواقع راغباً بالأصغاء إلى آرائهم الشريرة. ومهما يكن من أمر، إن الرجال شيء، وحكم الرب شيء آخر، وهو الذي أنهى ما شرع به، بأن جعل نهاية مؤامرات ذوي الآراء الشريرة تصل إلى لاشيء، فقد حاصر الملك ستيفن قلعة دريك Drake قرب يورك، وبعدها هدمها واستولى على عدد آخر من القلاع ذهب إلى دوفر للتحادث مع كونت فلاندرز، ووقع أثناء المؤتمر مريضاً، وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول لعام ١١٥٤ فارق الحياة، ودفن في دير فيفرشام إلى جانب زوجته وولده، وقد حكم غير سعيد ومع متاعب شديدة لمدة تسع عشرة سنة.

وبسرعة أرسل رئيس الأساقفة ثيوبولد مع عدد كبير من النبلاء الانكليز رسائل لإخبار مولاهم دوق نورماندي حتى يحضر سريعاً ويتولى مقاليد المملكة، وقد تأخر بسبب الرياح والبحر ولأسباب أخرى، غير أنه نزل إلى اليايسة قبيل حلول عيد الميلاد بعدة أيام في نيوفورست، ومعه زوجته وإخوانه، والعديد من النبلاء وقوة كبيرة، ومكثت انكلترا بدون ملك لمدة ستة أسابيع، لكن بنعمة من الرب لم يضطرب الحال، إما بسبب حب ملك المستقبل أو خوفاً منه، وبعدهما نزل هنري إلى اليايسة ذهب إلى لندن، وهناك بورك بشكل لائق ورائع جدير برجل له مكانة عالية، وحين نال المباركة كملك، تم ذلك وسط غبطة عظيمة، وصيحات كلها فرح وسرور، وجرى تنويجه بشكل رائع ومهيب.